المبحث الثالث

مطالع الشمَّاخ ومقاصده

القصيدة الأولى :

مطلعها : [1]

لِمَن طَلَلٌ عافٍ وَرَسمُ مَنازِلٍ عَفَت بَعدَ عَهدِ العاهِدينَ رِياضُها

يبدأ الشماخ هذه القصيدة بإلقاء التساؤل عن أطلال المحبوبة ورسوم منازلها التي عفت ؛ فيذكر أحوال ذلك الطلل ، ويصف آثاره وبقية آثار من ساروا فيه ، ويبين حال معالمه المقفرة ، وذلك في ثلاثة أبيات . ثم ينتقل إلى ذكر الرحلة ، ويحدد زمن انطلاقه فيها ؛ فيصف أحوال الرحلة المضنية المرهقة التيهاء ، ثم يصف ناقته التي ارتحل عليها ، ويفصِّل القول في وصفها ؛ وذلك في عشرة أبيات . يمهد بقوله :

وَكُنتُ إِذا ما شُعبَتا الأَمرِ شَكَّتا عَزَمتُ وَلَم يَحبِل هُمومي إِباضُها

ويدخل بعد ذلك في الغرض مباشرة ، وبه تختتم القصيدة ؛ حيث يقول :

وَلَم يُسلِ أَمراً مِثلُ أَمرِ صَريمَةٍ إِذا حاجَةٌ في النَفسِ طالَ اِعتِراضُها

أُجامِلُ أَقواماً حَياءً وَقَد أَرى صُدورَهُمُ تَغلي عَلَيَّ مِراضُها

فالقصيدة تدور حول أحوال وأهوال تحاك للشاعر ، وتكلفه من معاناة النفس وكدرها الكثير ، ولا يقدر أن ينتصر لنفسه وهو يرى أناسًا يكنون له كل

(١) ديوان الشماخ : ص ٢١١-٢١٥ .

البغض والحقد الدفين ، فيكتِّم كل ذلك ويتسامى فوقه ، ويصطنع لهم الود حياءً من نفسه . هذا هو جوهر غرضها ، ومقصدها .

ومطلع القصيدة ينقسم بين أمرين :

القسم الأول الطلل وعفاؤه : (١).

لِمَن طَلَــلٌ عــافٍ وَرَســمُ مَنــازِلٍ عَفَت بَعدَ عَهدِ العاهِــدينَ رِياضُــها

عَفَت غَيرَ آثــارِ الأَراجيــلِ تَعتَــري تَقَعقَــعُ في الآبــاطِ مِنــها وِفاضُــها

مَنــازِلُ لِلمَــيلاءِ أَقفَــرَ بَعــدَنا مَعالِمُهــا مِــن راكِــسٍ فَمِراضُــها

يستهل الشماخ قصيدته باستفهام ينمُّ عن حيرة واستنكار ، ويأتي الجناس الناقص في قوله : (عافٍ ، عفت . . . بعد عهد العاهدين) ومايمثله من قيمة صوتية في رسم ملامح الحالة التي تهيمن على أجواء الشاعر ورسوم المنازل التي عفت آثارها ، ومرابعها بعد عهد أهلها الذين كانوا بها عامدين ، فلم يبق بها من تلك المعالم شيءٌ يُذْكر سوى بقية آثار لأقدام الصائدين الـذيـن مرَّوا بها ، ! .

تلك المنازل والديار هي ديار محبوبته الميلاء . وحذَف المبتدأ في سياق ذكر الأطلال التي أقفرت معالمها من أدناها إلى أقصاها ، فأصبحت بلا أثر يُستدل بها ، أو يُهتدى بها إلى جادة الطريق . وكيف أكد على هذا العفاء ومايطويه من معاني الحيرة التي ذهبت به كل مذهب ، (طَلَلٌ عافٍ وَرَسمُ مَنازِلٍ عَفَت) فليس وحدها الأطلال التي عفت ، بل كل آثار عَلَقَتْ بها النفس .

---

(١) ديوان الشماخ : ص٢١١-٢١٢ . وبشرحه : (الأراجيل : الرجالة : جمع أرجال التي هي جمع راجل ضد الراكب ، تعتري : تقصدها وتغشاها ، تقعقع : مأخوذة من القعقعة وهي حكاية صوت السلاح ، والجلود اليابسة ، والحلي ، وغيرها ، الوفاض : جمع وفضة وهي الجعبة ، معالم : جمع معلم ؛ وهو الأثر يستدل به على الطريق ، راكس : واد ، لم يحدد مكانه ياقوت في المعجم ، وقيل : موضع لبني مازن . وقيل : في ديار بني سعد ، المراض : موضع أو وادٍ) .

والمستلهم لروح تلك المشاهد وإيحاءاتها وأبعاد شواهدها ، يجد صورها قاتمة الألوان مظلمة ، لا أنس فيها ولابهجة حياة ؛ فهذا الطلل عافٍ ، ورسْم منازله عفت ، وكيف احتذى الشمَّاخ الكلمات في تناغم الصوت وتصوير هذا المشهد !! ، وظهور مرارة الأسى في المقابل برحيل ذلك العهد الجميل الذي يُكِنُّ له كل الود ؛ فظهر في نظمه (عهد ، العاهدين) !! .

ثم أجد الشاعر يلِّح على ذكر العفاء في مطلع البيت الثاني ؛ وكأن هذا المعنى يدور ويعصف مع هبوب الريح ؛ ليشكل تضاريس تلك الديار ، حتى أصبح يلُّف جميع أحوالها وآثارها ! .

ويزيد ذلك المشهد قتامةً بعضُ قوله : (تعتري . .) وهيئتها التي تعتري منها النفس شعورًا بالقلق ، (وتقعقع . . وفاضها) ، وصوتها القَلِق الذي يُحدث وقعًا ثقيلاً على الأذن ، ويثير هيبة النفس . كذلك أسماء أماكن الديار (راكس . . . مراضها) ، وماتثيره من معانٍ ؛ فالرَكسُ[1] : رَدُّ الشيءِ مقلوبًا . وماتثير كلمة (مراضها) من معاني السقم ، وذهاب العافية ، فكل هذا تثير في النفس شعورًا غير محمود!! .

والذي يلفت النظر المعنى الذي يثيره اسم الصاحبة (الميلاء) الذي تكرر للمرة الثانية مع الشاعر ، وقد ذكرتُ ندرة هذا الاسم على ألسنة الجاهليين ، وقد ورد مرتين فقط في ديوان الشاعر . والذي يثير الانتباه أن الأغراض بين القصيدتين اللتين توارَد فيهما اسم الصاحبة تتقارب فيما بينهما تقاربًا كبيرًا ، وتدور في محيط متشابه من أحوال النفس ، وأهوالها!! .

فهناك في مطلع تلك القصيدة يفتتحها الشاعر بالعفاء :

عَفَت ذَروَةٌ مِــن أَهلِهــا فَجَفيرُهــا فَخَرجُ الــمَــرَوراةِ الدَّوابي فَــدورُها

---

(١) مختار الصحاح : (ركس) .

ويدور غرضها في محيط دائرة النفس ، وما تعتريها من جيشان الضمير إذا اعتلتها الهموم حين يقول :

عَلى مِثلِها أَقضي الـهُمومَ إِذا اِعتَرَت إِذا جاشَ هَمُّ النَفسِ مِنـها ضَـميرُها

وهنا أيضًا تدور حول حاجات النفس ، وهمومها ، وغليان الصدور .

وتشابههما ـ أيضًا ـ في كثير من الخصوصيات كذكر العفاء (عفت ذروة من أهلها . . .) (لمن طلل عافٍ ورسم منازل عفت) التي رسمت أول ملامح جو الشاعر النفسي .

فالشاعر هنا يرسم لوحة الطلل ، ويشكِّل هيئتها ابتداءً من ذكر (العفاء) حتى طغت على جميع ملامح تلك الديار ومشهد آثارها ؛ فكأن ما يثيره هذا المعنى من صور ، ومعانٍ هو معنى أصيل ، يتلفع وراءه مقاصد الشاعر ، وأحواله النفسية ، ومعاناته ! .

القسم الثاني حديث الرحلة والراحلة :[1].

وَدَوِيَّـةٍ تَيهـاءَ قَفـرٍ مَرادُهـا مَروتٍ يُكِلُّ العيسَ فيهـا اِرتِكاضُـه

---

(١) ديوان الشماخ : ص٢١١-٢١٢ . وبشرحه (الدوية : المفازة البعيدة الأطراف ، تيهاء : مضلة واسعة يتيه فيها الإنسان إذ ليس فيها مايهتدى به من الأعلام ، مرادها : من رادت الإبل ترود رياداً : اختلفت في المرعى مقبلة مدبرة ، مروت : أي قفر لانبات فيها ، العيس : الإبل البيض مع شقرة يسيرة ، ارتكاضها : من ارتكض الشيء أي اضطرب وتحرك ، والمعنى : أن السير فيها يتعب كرائم الإبل ، حرابي : جمع حرباء وهي دويبة على شكل سام أبرص ، نسأت بها صعراء : زجرتها لتزيد من سرعتها ، والصعراء : المائلة العنق من النشاط ، من الصعر وهو ميل في العنق وانقلاب في الوجه ، امتعاضها : غضبها ، جمالية : تشبه الجمل في تمام خلقتها ، عجرفية : التي لاتقصد في سيرها من نشاطها ، العرمس : الناقة الصلبة الشديدة ، الوجناء : ناقة تامة الخلق : غليظة لحم الوجه ، الاختفاض : هو السير اللين أي أنها سريعة نشيطة في الوقت الذي تتعب فيه الناقة الصلبة الشديدة فيلين سيرها ، المعزاء : أرض ==

إذا ما حَرابِيُّ الظَّهيرَةِ لَم تَقِل ... نَسَأتُ بِها صَعراءَ طالَ امتِعاضُها

جُمالِيَّةٌ في مَشيِها عَجرَفِيَّةٌ ... إذا العِرمِسُ الوَجناءُ طالَ اختِفاضُها

ذعِرتُ بِها سِربَ القَطا وَهوَ هاجِدٌ ... وَعَينُ الفَلاةِ لَم تُبَعِّث رِياضُها

كَأَنَّ حَصى المَعزاءِ بَينَ فُروجِها ... نَوادي نَوىً رُضخٍ أُشِبَّ ارفِضاضُها

مَتى ما تَرِد في لَيلَةِ الخِمسِ تَرتَوي ... رَجا مَنهَلٍ يَقِلُّ عَلَيهِ اغتِماضُها

إذا غاطَتِ الأَنساعُ فيها تَزَغَّمَت ... عُذافِرَةً يوفي الجَديلَ انتِهاضُها

تَشَكّى كَسيرَ رِجلِهِ كُلَّما مَشى ... عَلَيها قَليلاً عادَ فيها انِهياضُها

صَليتُ بِها في المُصطَلينَ بِحَرِّها ... فَطَلَّت وَقَد كانَت شَديداً عِضاضُها

وَغَمرَةِ مَوتٍ خُضتُ حَتّى قَطَعتُها ... وَقَد أَفظَعَ الجِبسَ الهِدانَ خِياضُها

أول ما يظهر على ملامح هذه الرحلة اتساع أطرافها ، وبُعد مراحل سيرها ؛ فهي مُضِلَّة شاسعة ، يتيه فيها المسافر ولا يجد ما يعينه على اهتداء الطريق ، أو ملاذا آمنا يحطُّ رحله عنده . فهذا هو المحور التي دارت حوله القصيدة ؛ فكأن هذه التقلبات هزَّت كيان الشاعر ، وجعلته في قلق دائم وظنون تلازمه ؛ فأرضها مقفرة لا نبت فيها ، تضطرب فيها الإبل ؛ حتى إن السير يصيب الكرائم منها والنجائب بالنصب . هذا الوصف البالغ الدقة ، الجامع لأحوال وتفاصيل هذه الرحلة ، جاء به بيت واحد فقط ، هو قوله :

==ذات حصباء ، نواديه : بواديه وسراعه ، أشب : اشتد ، ارفضاضها : تفرقها ، غاطت الأنساع : إذا لزقت في بطنها فدخلت فيه ، الأنساع : جمع نسع وهو سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال ، تزغمت : رددت لغامها في لهزامها من الغضب ، عذافرة : صلبة شديدة ، الجديل : الزمام : انتهاضها : قيامها ، صليت بها : قاسيت حرها ؛ أي شدتها ، العضاض : الشد بالأسنان على الشيء ، وغمرة موت : غمرة الشيء ؛ أي منهمكه وشدته ، خضت : دخلتها ، الجبس : الجبان الفدم الضعيف ، الهدان : البليد الأحمق الثقيل في الحرب ، الإباض : الحبل وأصله الحبل الذي يشد به رسغ يد البعير إلى عضده حتى ترتفع يده عن الأرض) .

وَدَوِيَّـــةٍ تَيهـــاءَ قَفـــرٍ مَرادُهـــا مَروتٍ يُكِلُّ العيسَ فيهـا اِرتِكاضُـها

فقد أظهر هذا البيت ملامح الجو السائد على مزاج هذه الرحلة ، والمعاني التي انسلَّت من مطلعها عن طريق أسلوب الجناس (عفت بعد عهد العاهدين) ، وكوَّنت كل كلمة نبعًا جرى في بناء مقطعه ، وبينت الحالة التي مرَّت بالشاعر ، وهو ينتقل على ظهر ناقته ، ومعاناة النفس تدور من حوله في كل الأحوال ، والمشاهد التي يمر بها .

فاستهلال وصف هذه الرحلة بقوله : (ودوية تيهاء قفر مرادها مروت) فيه إشارة إلى بُعد أطراف هذه الرحلة الممتدة ، جاء هذا الوصف عبر دفقة شعورية أظهرت ضجر النفس ، وتسلل هذا الضجر نحو مشاهدها والحالة المزاجية التي تسود فيها ؛ فهي مضلة ، يتيه فيها الراحل ولا يجد ما يهتدى به .

أما عن حال الإبل عادة وهي تسير لقطع أشطان هذه الرحلة فهو سير مضطرب ، يُتْعِب الكرائم منها والنجائب ؛ فضلاً عمَّا دونها . وقد أوحى برسم مشهد اضطراب هذا السير ، وعبَّر عن ذلك المعنى قوله : (ارتكاضها) وماقذفه إيقاع حروفها من ثقل صوتي شديد على النفس ، والآذان ، واشتقاق مبناها الحرفي الطويل ، الذي يدل على زيادة في معناها ، ويومئ إلى طول زمان هذه الرحلة ؛ فأبانت عن حجم المعاناة التي يلقاها السائر في هذا الدرب الطويل الشاق ، المقفر .

ثم يأتي البيت الذي يليه :

إذا ما حَرابِـيُّ الظَّهـيرَةِ لَـم تَقِـل نَسَأتُ بِها صَعراءَ طـالَ اِمتِعاضُـها

ليزيد مشهد هذه الرحلة كآبة ووقعا في النفس ، أوحت بها هيئة الحرابي وهي تزحف بين كثبان الرمال وقت الظهيرة الحارقة . وفي هذا الوقت العصيب يستنفر الشماخ ناقته التي هي فوق تلك النجائب من الإبل وقد زجرها لتزيد من سرعتها ، وهي مائلة العنق قد استشاطت غضبًا . هذه الناقة صلبة شديدة ،

تحافظ على سرعة سيرها بقوة ونشاط ، في الحين الذي يسير فيه غيرها سيراً لينا ، وتتعب فيه الناقة الصلبة الشديدة . وهي لاتكل في سيرهـا ، ولا تملُّ ، بل تبكر غاية التبكير قبل أن يتنفس ضوء الصباح ؛ حتى إنها تسبق القط ـ الذي يضرب به المثل في التبكير ـ فيذعر من تبكيرها .

إذا نظرت إلى سرعة هذه الناقة رأيت حصى الحصباء يتطاير بين فروجها وكأنه صغار النوى وهو يتفرق من تحت المرضخ ، هذه الناقة مثالٌ في النشاط ومواصلة السير ؛ فهي تتحامل على نفسها فلا تستكنُّ ، ولا ترتاح ، ولا تَرِدُ الماء إلا حين تستنفد كل طاقتها ، وهي شديدة عظيمة ، إذا شُدَّ عليها سير الرحل والتصق ببطنها سرعان ماتسرب إليها الغضب ، ورددت رغاءها في لهازمها ، وانتفضت في العدو ؛ حتى إن الشاعر ظل يقاسي شدتها وقوة بأسها في السير في الحر .

وهكذا ظل الشاعر في هذه الرحلة القاسية يركب الأهوال تلو الأهول ، حتى بلغ منها منتهاها عند قوله : (وَغَمرَةِ مَوتٍ خُضتُ حَتّى قَطَعتُها) ثم تراه ينتقل بعد ذلك ممهداً ومؤذنا في الدخول إلى غرضه الدافع إلى ركوب كل ذلك :

وَكُنتُ إِذا ما شُـعبَتا الأَمـرِ شَـكَّتا ... عَزَمتُ وَلَم يَحبِل هُمـومي إِباضُـها

وَلَم يُسلِ أَمـراً مِثـلُ أَمـرِ صَـريمَةٍ ... إِذا حاجَةٌ في النَفسِ طالَ اِعتَراضُـها

أُجامِـلُ أَقوامـاً حَيـاءً وَقَـد أَرى ... صُـدورَهُمُ تَغلـي عَلَـيَّ مِراضُـها

فالروح البادية على مجمل أحداث هذه الرحلة ظاهرها المعاناة ، وتدور في جو مشحون من الغضب ، والبعد عن مظاهر الارتياح والأنس ، ويلف معالمها شعور بالتيه والبعد والاستوحاش . وإن كان في الصفات التي ألقاها الشماخ على ناقته من إبراز ملامح القوة والنشاط والسرعة ومواصلة السير ما يوهم خلاف ذلك ، إلا أن اكتمال صورة المشاهد تُبْرز الجو العام السائد فيها .

فقد ابتدأت هذه الرحلة في أرض فلاة تيهاء ، قفر ، يكل فيها العيس في عزٍّ القيظ حرقةً والتهابًا ، إذما حرابي الظهيرة لم تقل . ابتدأها على ظهر ناقة صعراء ، غضبى . فظل الشاعر يبالغ في زجرها ؛ ليزيد من سرعتها حتى استشاطت غضبًا على غضب ، فظلت تواصل السير وتجدَّ فيه ، دون غاية تنشدها ، أو تحدد معلمًا بارزًا تحط رحلها عنده ، فهي رحلة تيهاء .

فهذه الرحلة وإن تشابهت مع قصائد الشماخ الأخرى ، أو قصائد غيره من الشعراء في بعض الملامح الظاهرة التي رسم معالمها في وصف الرحلة والراحلة ؛ كقوة الناقة ، وسرعتها ، ونشاطها إلا أن هناك تفاصيل يجب ألا تُغْفَل ، وتغيَّب عن وصف المشهد لإظهار دفائن أسرار الاختلاف ، ومعرفة حقائق الفروق ، والدافع من ورائها .

وهناك أوصاف مشابهة لأوصاف هذه الناقة ، ألقاها الشماخ على ناقته في وصف الرحلة التي بالقصيدة القافية ، حين يقول : (١).

هَل تُسلِيَنَّكَ عَنها اليَومَ إِذ شَحَطَت ... عَيرانَةٌ ذاتُ إِرقالٍ وَإِعناقِ
حَرفٌ صَموتُ السُرى إِلاَّ تَلَفُّتُها ... باللَيلِ في سَأَدٍ مِنها وَإِطراقِ
جُلذِيَّةٌ بِقُتودِ الرَحلِ ناجِيَةٌ ... إِذا النُجومُ تَدَلَّت عِندَ تَخفاقِ
وَإِن رَمَيتَ بِها في طامِسٍ دَأَبَت ... إِذا تَرَقرَقَ آلٌ بَعدَ رَقراقِ
حَنَّت عَلى سِكَّةِ الساري فَجاوَبَها ... حَمامَةٌ مِن حَمامٍ ذاتُ أَطواقِ
لَمّا استَفاضَ لَها الوادي وَأَلجَأَها ... مِن ذي طُوالَةَ في عَوجاءَ ميفاقِ
ظَلَّت تَسوقُ بِأَعلى عَينِها عَلَماً ... مِن جَوِّ رَقدٍ رَأَتهُ غَيرَ مُنساقِ
تَخدي يَداها وَرِجلاها عَلى شَرَكٍ ... سَحَّ النَجاءِ بِهِ مِن بارِقٍ باقِ
كادَت تُساقِطُني وَالرَّحلَ أَن نَطَقَت ... حَمامَةٌ فَدَعَت ساقاً عَلى ساقِ

(١) ديوان الشماخ : ص٢٥٤-٢٥٦ .

فيلاحظ على مظاهر هذه الناقة أنها اشتملت على صفات القوة والنشاط ، والسرعة ؛ فهي ذات إرقال وإعناق ، وهي حرف صموت ، وجلذية ، والفرق هنا أن هذه الناقة ظلت تسير في طريقها ، وهي ترمي بأعلى عينها عَلَمًا معروفًا في أفق ذلك الطريق ؛ لتحط رحلها عنده ، وتقضي حاجتها فيه . فنشطت واستفاض لها الوادي اتساعًا ؛ فانهالت كالمطروظلت (تَخدي يَداها وَرِجلاها عَلى شَرَكٍ سَحَّ النَّجاءِ بِهِ مِن بارِقٍ باقِ) ، فالرحل إن نطقت ـ من طربة ماتجد ـ قالت : (حمامَةٌ فَدَعَت ساقاً عَلى ساقِ) .

فمشهد هذه الرحلة ظاهرها الارتياح ، والطمأنينة ، والاستبشار ، ووضوح الغاية والمقصد .

أما الناقة في مشاهد هذه الرحلة من القصيدة فهي تقطع قفارًا تيهاء شاسعة ، وليس لها معلمٌ ، أو علامات ترقبها وتهتدي بها ، أو تحط رحلها عنده . وقد انطلقت في وقت قيظ شديد حره . هذه الناقة وإن كانت (جُمالِيَّةٌ) تشبه الجمل في شدته وقوة تحمله ، ومشيه ، وتباكر بالمسير ، وتسرع حتى ترى حصى المحصب يتطاير من بين فروجها ، فتراها سابقت بذلك أشد الحيوانات بكورا ، وذعرته وهو لايزال هاجدا في مفحصه ؛ فإنك ترى وتشعر أن مجمل الأحداث والمشاهد التي أحاطت بها قد بنيت على ضروب من الأهوال والمعاناة والمصاعب ، فلا ترى الأنس فيها ، ولا الأريحية والطَّرَب الذي رأيناه في الوصف السابق ، إضافة إلى ماتحمله حروف الروي من شدة صوتية مستثقلة ، تعود بالضمير في مجملها على الناقة ومجريات أحوالها ؛ مثل : (ارتكاضها ، امتعاضها ، ارفضاضها ، انتهاضها ، انهياضها ، عضاضها ، خياضها).

كل ذلك يعطيني انطباعًا بأن معنى (العفاء والرسوم التي عفت بعد عهد العاهدين) والتي شكلَّت معالم المطلع ورسمت مشاهد وهيئة الطلل والرسوم ،

وطغيان أنغام أصوت الحروف الصادرة عن الأسلوب الجناسي البديع كانت باعثةً على كثير من مجريات الرحلة وأحوالها . والناقة التي انطلق بها الشاعر في وقت لا يصبر على حره أحد سوى حرابي الهواجر الزاحفة فوق كثبان الرمال الملتهبة . فناغم إيحاء ذلك المعنى النسل من رحم المطلع البديعي عبر الجناس الصادر عن جملة الاستفهام أواصر البناء في ما اشتملت عليه القصيدة من أحوال ، وتحقق بذلك نوع من التناسب الحاصل بين المطلع ، وما جرى في الرحلة والراحلة من أحداث ومشاهد ، وناسب أيضا ماحوته خاتمة القصيدة من المعاني المتعلقة من ذكر صريمة النفس ، وقوة عزيمتها على الأمور ، إذا ما حاجة طال اعتراضها عليها ، والصدور التي تغلي . . . ! .

القصيدة الثانية :

كِـــلا يَـــومَي طُوالَـــةَ وَصـــلُ أَروى ظَنـــــونٌ آنَ مَطَـــــرَّحُ الظَنـــــونِ

وقد جاء مطلعها مقسمًا بين أمرين :

القسم الأوَّل : ذكْر الصاحبة (أروى) والسعي والاجتهاد الحثيث في وصالها ، وهو في شك من الوصول منها وتحقيق مبتغاه . وجاء ذلك في ستة أبيات .

القسم الثاني : حديث الراحلة ؛ حيث وصف ناقته بأنها صلبة ، وثيقة ، يُؤمَن عثارها ، قد وجَّه ناحيتها إلى عَرَابَة الأوسي ، وهي تشكِّي كُلُومًا بعد مقحدها (سنامها) ، ثم سرد أحوال الرحلة ، والراحلة ، وكان ذلك ممتدًا في سبعة عشر بيتًا ، ثم الدخول في صريح غرض المدح :

رَأَيـــتُ عَرابَـــةَ الأَوسِـــيَّ يَســـمو إِلى الخَـــيراتِ مُنقَطِـــعَ القَـــرين

القسم الأوَّل ذكر الصاحبة :

كِـــلا يَـــومَي طُوالَـــةَ وَصـــلُ أَروى ظَنـــــونٌ آنَ مَطَّـــــرَحُ الظَنـــــونِ

وَمـــا أَروى وَإِن كَرُمَـــت عَلَينـــا بِـــأَدنى مِـــن مُوَقَّفَـــةٍ حَـــرونِ[1]
تُطيـــفُ بِهـــا الرُّمـــاةُ وَتَتَّقـــيهِم بِأَوعـــالٍ مُعَطَّفَـــةِ القُـــرونِ
وَمـــاءٍ قَـــد وَرَدتُ لِوَصـــلِ أَروى عَلَيـــهِ الطَّـــيرُ كَـــالوَرَقِ اللَّجـــينِ
ذَعَـــرتُ بِـــهِ القَطـــا وَنَفَيـــتُ عَنـــهُ مَقـــامَ الـــذِّئبِ كَالرَّجُـــلِ اللَّعـــينِ
وَلَستُ إِذا الـــهُمـــومُ تَحَضَّـــرَتني بِأَخضَـــعَ في الحَـــوادِثِ مُســـتَكينِ

القصيدة في مدح عرابة بن أوس رضي الله عنه [2]، روى أبو الفرج الأصفهاني[3] أن الشمَّاخ قدم إلى المدينة فلقيه عرابة ، وكان سيدًا من ساداتها وجوادًا من أجوادها المشهورين فسأله عمَّا أقدمه إلى المدينة ، فقال : أردت أن أمتار

(١) ديوان الشماخ ، تحقيق صلاح الدين هادي ، ص٣١٩/٣٢٢ دار المعارف ، مصر ١٩٦٨م . وبهامشه : (طوالة : بئرفي ديار فزارة لبني مرة وغطفان ، ظنون : جمع الظن ، وهو شك ويقين ، وقال الزمخشري : الظنون كل ماتتوهمه ولست منه على يقين ، وقال ابن الأنباري في شرح البيت : الظنون : البئر القليلة الماء . وأنا إلى هذا أميل فدلالتها ألصق بجو القصيدة ومحيط غرضها . الموقفة : التوقيف هو البياض مع السواد ، ودابة موقفة أي في قوائمها خطوط سود ، حرون : وهي الدواب التي إذا استدر جريها وقفت فلم تبرح ، تطيف بها : أي تدور حولهم ، بأوعال : تيوس الجبل ، معطفة القرون : أي قرونها محنية إلى أعلا مع إقبال أطرافها بعضها إلى بعض ، عليه الطير : أراد ريش الطير فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، ويجوز أن يكون حالاً من الطير بدون تقدير مضاف محذوف كما ذكر البغدادي وقال : إن الطير قد اتخذت فيه الأوكار لخلائه وكثرتها ، وهي كناية عن قلة من يرد هذا الماء ، اللجين : من لجن الماء فهو ملجون أي خبطه وخلطه بدقيق أوشعير ، والورق اللجُّين صفة للماء أي ثخين مما امتزج به ، ذعرت : أفزعت ، نفيت : طردت وأبعدت ، اللعين : المطرود المقصي ، تحضرتني : حضرتني وأصابتني ، بأخضع : لايخضع .

(٢) هو عرابة بن أوس بن قيظي الأوسي الحارثي الأنصاري ، من سادات المدينة الأجواد المشهورين ، أدرك النبي ﷺ ، وأسلم صغيرا ، توفي بالمدينة نحو سنة ٦٠ للهجرة ، (الأعلام ٢٢٢/٤) .

(٣) الأغاني ، (١٩٥/٩) .

لأهلي[1]. وكان معه بعيران ، فأوقرهما له بُرًّا ، وتمرًا ، وكساه ، وبرَّه وأكرمه ، فخرج عن المدينة وامتدحه بهذه القصيدة .

فاختيار اسم (أروى) وهي أنثى الوعل ذو علاقة بمغزى الشاعر ؛ فهو يشير إلى أمر بعد عليه والتوى ، فتعسر الوصول إليه ، وغايته بَعُدَت وشقَّ عليه سبيلها : هو يروم وصالها ، شاحًّا به الظن في الوصول إليها . ثم ينتقل في البيت الثاني بالدلالة في اسم الصاحبة من اسم الجنس المؤنث إلى أنثى الوعل التي في قوائمها البياض والسواد ، فهي ليست أقرب منالاً من الأروية التي تعتصم بأعلى الجبل فتمتنع على الصياد والرماة يدورون حولها باحثين عن موضع تنكشف لهم فيه ، ويمكن إصابتها منه . هذه الأروى ذات بأس شديد ، وسلاح رادع يُتَّقَى ؛ فهي ذات قرون محنية إلى أعلى ، مع إقبال أطرافها بعضها على بعض .

ثم ينتقل إلى وصف الماء الذي ورده طمعًا ، وشوقًا إلى وصل هذه الصاحبة . هذا الماء (عَلَيهِ الطَيرُ كَالوَرَقِ اللَجينِ) أي ريش الطيور ؛ حتى غدا من كثرتها كالورق الملجون في الثخانة ، والسماكة ، واللزوجة . وهذا ما دفع الشاعر أن يحرص على التبكير قبل أن تهْتَدي إليه القطاة ، أو يدل عليه الذئب . ثم يختم هذا الجزء ، ببيان حاله إذا ما حضرته الهموم ، وأصابته فإنه لا يخضع لها ويستكن مستسلما ؛ بل يسعى ويستحث السعي طلبًا للرزق ، وتبديد هذه الهموم التي تحاصره .

وأوَّل ما يلفت النظر في هذا المطلع صورته التي لا تخلو من غرابة ، والتي جاء بها الشمَّاخ خلاف المألوف من مطالع قصائده التي يبدؤها بالتشبيب بذكر أسماء الصواحب ، كذِكْر محبوبته (ليلى ، وسليمى ، وأسماء ، وابنة الراقي ،

(١) المِيرَةُ بالكسر : جَلْبُ الطَّعامِ . مارَ عِيالَهُ يَمِيرُ مَيْراً ، وأمارَهُمْ ، وامتارَهُمْ . (القاموس المحيط : (الميرة).

وسعاد[1]) ، فهو لا يبكي فيها الدِّمَن ، ولم يذكر عفاء الأطلال والرسوم ، ولم يشْكُ البين . فلم يحفل بترديد عدد من أسماء الأماكن والديار . وزد على ذلك ؛ بأن هذه هي القصيدة الوحيدة من بين سائر قصائد الديوان التي تفردت باختيار اسم (أروى) للصاحبة ، وترديده ؛ وهو ما يوحي من أول إطلالة بشيء من مغزى القصيدة الذي رمى إليه .

فهيئة المطلع توحي بأنه كان منهوكًا بوصل (أروى) هذه على مدى يومين متواصِلَين! .

والشيء اللافت في اختياره لهذا الاسم ازدواجية استخدامه ، وتنقُّله بين اسم المرأة وأنثى الوَعْل في آن واحد .

فهل في أنثى الوعل المُوقَفَة ما يُطْمِع الرُّمَاة الذين يدورون حولها باحثين عن مكان تنكشف لهم فيه ؛ للاستفراد بها واصطيادها ، خاصة أنها أروى حَرُون . والحرون تعني : لزوم الشيء للشيء لايكاد يفارقه . كما أورده ابن فارس[2] في مقاييسه في مادة الحاء والراء والنون (حرن) ؟! .

أهي الغاية المرهقة التي تمثِّلها أنثى الوعل حيث يسعى الشاعر للوصول إليها والحصول عليها بكل توجُّس ، وحذر ، وتيقُّظ؟! .

أم هي فجائية انتقال حال الشاعر من النعماء ورغد العيش إلى حال العَوَز والجوع والفقر الذي أحاط به؟! .

كل هذا وارد في الشعر ؛ خاصة أن قوله في جملة البيت التاسع : « كُلوماً بَعدَ مَقحَدِها السَمينِ » ترجِّح هذا الرأي ، وتعضِّده .

وأمر آخر وهو الأهم والأدل ـ كما يبدولي ـ ؛ فمن مشتقات اسم (أروى) الرَيُّ والشَّبَع ، فقد ورد في القاموس المحيط : رَوِيَ من الماءِ واللَّبَن ، رَيًّا ورِيًّا

(١) انظر : مطالع قصائد الشماخ في ديوانه برقم : (٣) ، (٦) ، (٨) ، (١٢) ، (١٣) ، (١٤) ، (٢٠) ، (٢٣) .

(٢) مقاييس اللغة : (حرن) .

ورَوَى ، وتَرَوَّى وارْتَوَى ، بمَعْنًى . والرَّاوِيَةُ : المَزَادَة[1]. وفي اللسان[2] هو الماء الذي فيه للواردة ريٌّ . واستشهد بأرجوزة من أراجيز العرب يقول فيها :

مُسْحَنْفِرٌ يَهْدِي إلى ماء رِوَى طامِي الجِمام لَمْ تَمَخِّجْه الدِّلا

فهو أيضًا لم تمخجه الدلا!! .

ثم أجد لفظة (ظنون)؛ تلقي بي في فضاء القصيدة ومحيط غرضها المنشود ، فالظنون كما فسرها ابن الأنباري ـ وكان بصيراً بأسرار اللغة ـ تعني : البئرالقليلة الماء . بالإضافة إلى لفظة (كرمت) في البيت الثاني ، التي تثبت أركان المعنى الذي يدور حول مجريات غرض القصيدة .

فجملة هذه الألفاظ التي احتوى عليها المطلع تدل على جدِّ الشاعر في المسير المتواصل ، طمعًا في أن تجود (أروى) بوصالها ، ولفظة (الظنون) توحي بالقلة والعوز والشُّح . وانتقال الشاعر في البيت الثاني إلى الحديث عن صفة الكرم تحديدًا ، وأن هذه (الأروى) ليست إلا لازمة لهذه العادة والتي غدت لها طبعًا لاتكاد تنفك عنها ، مما يجعلها مطمعًا ثمينًا للرماة الذين يتربصون بها ، وهي لاتزال تتقيهم (أوعالٍ مُعَطَّفَةِ القُرون) .

ثم الانتقال إلى محاولة وصل (بـأروى) عند ماءٍ (عَلَيهِ الطَّيرُ كَالوَرَقِ اللَّجين) يظهر من هذه الصورة أن هذه الماء تزدحم عندها الطيور فلا تكاد تفارقها ؛ فليس هناك من حيلة إلا التبكير إليها ، حتى إذا اهتدى إليها القطا فإنه سيفر مذعوراً ، ويُقْصي عنها كل حيوان مفترس حاول إليها الوصول .

ومما تجدر الإشارة إليه : حسن اختيار الألفاظ في قوله : (ذعرت) و (نفيت) وملاءمتها لوصف المشهد ، فناسب القطا الذعر ، والذئب النَّفْى . وقد خصَّ القطا والذئب ؛ لأن القطا أهدى الطير ، والذئب أهدى السباع . كما ذكر ذلك

(١) القاموس المحيط : (روي).

(٢) اللسان : (روي) .

البغدادي في شرح البيت[1]. فأجد جملة هذه الألفاظ التي حملها مشهد المطلع تحمل معاناة وألماً ، ومكابدة حوادث جمة تنزلق فيها الأقدام . ثم تجد الشاعر لايستكين إذا حضرته هذه الهموم ؛ لكن لغته هنا اختلفت فبدا فيها ثبات ، وطمأنينة ، وثقة .

كل هذا قد نُسج بوعي شديد من الشاعر ، وإيحاء منه ، لتناسب غرض القصيدة وجوها العام . وهي إشارات أراها شديدة الصلة بالسياق ، وغرض القصيدة الرئيس .

القسم الثاني : ذكر الراحلة : [2].

فَسَلِّ الـهَمَّ عَنـكَ بِـذاتِ لَـوثٍ ... عُـذافِرَةٍ كَمطرَقَـةِ القُيـونِ

إذا بَلَّغـتِني وَحَطَطـتِ رَحلـي ... عَرابَـةَ فَاشـرَقي بِـدَمِ الـوَتينِ

إلَيـكَ بَعَثـتُ راحِلَـتي تَشَـكّى ... كُلومـاً بَعـدَ مَقحَـدِها السَّـمينِ

فَنِعمَ الـمُعتَـرى رَحَلَـت إلَيـهِ ... رَحى حَيزومِهـا كَرَحـى الطَّحـينِ

هذا الجزء من المطلَع في وصف الراحلة والرحلة ، وهو يحاكي المقصد ، ويمتد إلى صلب الغرض المنشود من القصيدة . وقد امتزجت في سياقه تصريحات وإيماءات ظاهرة الدلالة على جو القصيدة العام ، والحال التي دفعت الشاعر إلى نسج أبياتها .

---

(١) انظر : شرح ديوان الشماخ : ص٣٢١ .

(٢) ديوان الشماخ : ص٣٢٢-٣٢٤ .

وبهامشه : (فَسَلِّ الهم : أي اكشف الهم عنك ، بذات لوث : بناقة ذات قوة على السير ، عذافرة : صلبة شديدة أمينة وثيقة الظهر ، كمطرقة القيون : القيون جمع قين ، أشرقي : من الشّرَق (بالتحريك) أي الغصة ، الوتين : عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر ، تشكى : أي تتشكى ، كلومًا : جروحا ، مقحدها : سنامها ، المعترى : الذي يغشى طلبًا لمعروفه ، رحى حيزومها : رحى صدرها . وهي الكركرة تشبه رحى الطحين).

أول أمر لافت هنا : المفارقة العجيبة التي كافأ بها الشماخ ناقته إذْ بلَّغته غايته المنشودة ؛ فقد أحدث هذا البيت جدلاً بين النقاد رفضًا وقبولاً ، وهو معنى مستعمل قد تبعه ، أو تقارب معه فيه صفوة من كبار الشعراء ؛ كذي الرمة حين خاطب ناقته في قصيدته التي يمدح بها بلالا بن أبي موسى الأشعري[1] :

إذا ابـــن أَبي موســـى بِـــلالٌ بَلَغتِـــهِ فَقامَ بِفَـــأسٍ بَـــينَ وصـــلَيكِ جـــازِرُ

والفرزدق في قصيدته التي مدح بها ابن مدرك[2]:

إذا قَطَنـــاً بَلَّغتنيـــهِ ابِـــنَ مُـــدرِكٍ فَلاقَيتَ مِن طَـــيرِ العَراقيـــبِ أَخـــيَلا

وقد عاب معنى هذا البيت جماعة من الرواة ، وقالوا : « كان ينبغي أن ينظر إليها مع استغنائه عنها » . وكان ممن عابة عَرَابَةُ الأوسي مـمـدوحـه ، فـقـال لما أنشد الشماخ البيت : « بئس ما كافأتها به »[3]. وقال أبو نواس مخاطباً ناقته متهكمًا بمعنى بيت الشماخ :[4].

فَلَـــم أَجعَلـــكِ لِلقُربـــانِ نَحـــرًا وَلا قُلـــتُ اشـــرَقي بِـــدَمِ الـــوَتينِ

وكان هناك فريق من النقاد الحاذقين قد استحسنه ؛ منهم أبو العباس المبرد ، والآمدي . وكان الآمدي ذا بصيرة جيدة في فهم مغازي الشعر وفقه دلالات

---

(١) ديوان ذي الرمة ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق مجيد طـراد ، ص٣٦٣ طبعـة أولى ١٤١٣هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،.

(٢) ديوان الفرزدق : شرح : على فاعور ، ص٤٧٨ ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، دار الكتـب العلمية ، بيروت .

(٣) الموشح ، أبـو عبيـد الله المرزبـاني ، ص ٦٨-٧٠ ، جمعيـة نشـر الكتـب ، المطبعـة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ .

(٤) ديوان أبي نواس ، ص٥٩٥ ، دار صادر ، بيروت .

الكلام ، فلم يفهمه على أنه دعاء على الناقة ، وقال : « إنما أراد أنك إذا بلغتنيه فقد بلغت الغنى وأدركت العوض منك ، فلم يجعل جزاء التبليغ النحر »[1].

وهذا تأويل دقيق ، وهو يتناسب مع سياق القصيدة ؛ وجوها ، فقد سكن رَوْعُ الشاعر ببلوغه غايته التي أَمَّها عن طريق ناقته ، حتى أصبح لايبالي بهلاك هذه الناقة ، ولا الشح بها ؛ فكأنه كان يرى في إشراق دمها عتقًا لها ، بعد أن كان بها ضنينًا ! .

ثم أجد البيت التالي من المطلع يحكي واقع الحال ، فناقته (تَشَكّى كُلوماً بَعدَ مَقحَدِها السَمينِ) وهي إشارة بالغة إلى الحال الذي كان فيها الشاعرُ ، ثم أصبح عليها ، فقد أصبحت هذه الناقة تشكِّى كلومًا ، بعد أن كانت تنعم بالعيش الرغيد ، وتشكو السِّمن من ذلك؟! .

ويلاحظ كيف أدَّتْ الكلمات (تشكَّى) و (كلوما) ، وارتفاع نبرة صوت الحلق الجريح في كلمة (مقحدها) ؛ فهي نبرة معبَّرة عن واقع الحال ، لها دور في تصوير الحال المريرة التي وصل إليها الشاعر . وهي ـ فيما يبدو ـ التي حدت بالشاعر إلى أن يفتتح مطلعه بذلك الافتتاح المنهك :

كِـــلا يَـــومَي طُوالَـــةَ وَصـــلُ أَروى ظَنـــــونٌ آنَ مَطَّـــــرَحُ الظَّنـــــونِ

فهو يصل الليل بالنهار ، جاهدًا ، ليس له هم سوى وصال (أروى) ، غير مبالٍ بأي شيء سواه .

ثم أجد الشاعر في البيت العاشر ينسج صورة من البيان ، يصف فيها حيزوم ناقته ، وهي قاصدة السير نحو منشودها (عرابة) بأن (رَحى حَيزومِها كَرَحى الطَّحينِ) . هذه الصورة كان للرواة والنقَّاد موقفا منها أيضًا ، فقد عابها الأصمعي وقال : « السعدانة أي الحيزوم توصف بالصغر » . وعدَّها ابن طباطبا

(١) الموازنة بين الطائيين ، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ص٣٩٢ .

من الأبيات التي قصَّر فيها أصحابها عن الغايات التي أجروها ، وقال : [1] « وإنما توصف النجائب بصغر الكركرة ، ولطف الخف » . وعقب ابن رشيق على قول الأصمعي في البيت[2] وقال : « أظنه يصفها بالكبر ، وهو عيب لا محالة ؛ وإنما وصفها بالصلابة لا غير » .

فالألفاظ التي نسجت ملامح هذه الصورة نُسِجَت بوحي شديد من الغرض ، وجذْب آسر من الظرف الذي مرَّ به الشاعر ؛ فهي مكثفة الدلالة ، مليئة بما تُفْصِح به عن حاجته التي استحوذت على حواسه وقواه مما جعله يرى في رحى الطحين الجاثم على صدر حاجته خيرَ ما يمثِّلُ صلابة حيزوم ناقته التي يسير عليها! .

امتداد وصف الرحلة والراحلة :

إذا بَرَكَت عَلى عَلياءَ أَلقَت ... عَسيبَ جِرانِها كَعَصا الهَجينِ[3]

وَإِن ضُرِبَت عَلى العِلاَّتِ حَطَّت ... إِلَيكَ حِطاطَ هادِيَةٍ شَنونِ

تُوائِلُ مِن مِصَكٍّ أَنصَبَتهُ ... حَوالِبُ أَسهَرَيهِ بِالذَّنينِ

مَتى يَرِدِ القَطاةَ يَرِكْ عَلَيها ... حِنوَّ الرَّأسِ مُعتَرِضَ الجَبينِ

شَجٍ بِالريقِ أَن حَرُمَت عَلَيهِ ... حَصانُ الفَرجِ واسِقَةُ الجَنينِ

طَوَت أَحشاءَ مُرتِجَةٍ لِوَقتٍ ... عَلى مَشَجٍ سُلالَتُهُ مَهينِ

هذا الجزء هو امتداد للقسم الثاني من المطلع ، وهو يدور حول وصف مشاهد الرحلة ، وصفات الراحلة التي يممت نحو ممدوحها عرابة . فهذه

---

(١) عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق : عباس عبد الساتر ، منشورات محمد علي بيضون ، ص٩٩ طبعة ثانية ١٤٢٦هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، باب الشعر القاصر عن الغايات .

(٢) العمدة ، ٢٤٦/٢ .

(٣) ديوان الشماخ ، ص٣٢٥-٣٢٨ .

الراحلة إذا قصدت مكانا مشرفا مرتفعًا ، ألقت عنقها المهزول إلى الأمام ، والذي يشبه في هزاله العصا التي يحملها الراعي ، وإن ضربت وشُدَّ عليها المسير على ما بها من النَّصب والجوع والظمأ ، أسرعت نحو غايتها سرعة أتان وحشية ، حتى تقدمت في سيرها على جماعة الحُمُر . فهذه الأتان «شنون» وهي : التي تكون بين السِّمَن والهُزَال ؛ فهي تنجو بنفسها ، فارّةً من حمارٍ وحشيٍ قوي مجتمع الخَلْق ، قد أتعبته شدةً غِلْمته ، وهو في غاية النشاط والفحولة ، هذا الحمار «شَجٍ بِالريقِ» حسرةً على عدم تمكُّنه من هذه الأتان لمَّا عرف أنها (طَوَت أَحشاءَ مُرتِجَةٍ لِوَقتٍ عَلى مَشَجٍ سُلالَتُهُ مَهيَن) فهي حامل من ماء سلالته فلم يعد يطلبها . وانظر إلى لفظتي (العليا ، والعلاَّت) ومراعاة الحذو من الشاعر في تنظيم مفردات الجملتين ، (إذا بركت على علياء ألقت) ، و (إذا ضربت على العلاَّت حطت) ، وأي روعة تحت هذا التناغم المنساب ، الذي يصور اتزان سيرها ، واستوائه بحسب حاجة ظرفها المحيط! .

ومراعاة الحذو في الكلمات والتناغم الصوتي ظاهرة قد شاعت في كثير من مطالع الشمَّاخ ؛ فأجدها في مطلع قصيدته[1]:

لِمَن طَلَــلٌ عــافٍ وَرَســمُ مَنــازِلٍ عَفَت بَعدَ عَهدِ العاهِــدينَ رِياضُــها

في قوله : «عافٍ ، عفت» ، «عهد ، العاهدين» .

فالملاحظ على هذا المشهد أنه يحكي أحوال ناقة منهكة من شدة السير والسفر ، وهو أمر مختلف نسبيًّا عن العادة التي يصف بها الشعراء رواحلهم ، خاصة إذا كان الغرض الذي ينشدونه عليها هو المدح ؛ إذْ العادة أن توصف بالقوة ، والجسارة ، والخِفَّة والنشاط ! .

وأمرآخر في هذا المشهد ، يتمثل في حال الناقة التي يممَّت قَصْدها بالمسير نحو مكان في علياء مشرف ، وهي تجهد نفسها بمدِّ عنقها المهزول لتصل إليه .

(١) ديوان الشماخ : ص٢١١ .

وفي هذه الصورة إشارة بالغة الدلالة إلى مقام الحال الذي يسود جو القصيدة وسياق معانيها ؛ فليس المكان المشرف المرتفع إلا مكانة وحال عرابة الأوسي . وهذه الناقة هي الوسيلة التي يشكو بها الحال ؛ فينتقل بها من صورة الناقة المهزولة إلى صورة الأتان الشنون ، وبدأ يحكي قصة تلفُّ أحداثها المعاناة لأتان قد بدأت تدب عليها علامات الجوع ، ومظاهر البؤس ، والفقر . ولفظة «شنون» ترسم نقطة تحول لحال وتكوين هذه الأتان من حال السمن ، إلى حال الهزال ، [1] «فيقال للرجل والبعير إذا هُزِلَ : قد اسْتَشَنَّ . وقد وردت بمعنى الجائع ، قال الطِّرِمَّاح[2]:

يَظَـــلُّ غُرابُهـــا ضَـــرِماً شَـــذَاه شَـــجٍ بِخُصُـــومةِ الـــذئبِ الشَّـــنُونِ

أي : الجائع .

إضافة إلى ما لهذه الكلمة من وقْع على النفس من صـوت شنشنتها الـتي لا توحي بأمر محمود . فقد ورد أن من معانيها الشن والإغارة[3]. وأورد ابن فارس[4] أن الشين والنون أصلٌ واحد يدلُّ على إخلاقٍ ، ويُبْس . من ذلك الشَّنُّ ، وهو الجِلد اليابس الخَلَق البالي ، والجمع شِنانٌ .

فقد اجتمع على هذه الأتان أمران :

الأول : يتمثل في حال الجوع الذي أصابها فتردت وسقم حالها ، لكنها على الرغم من ذلك سابقَت مَنْ حولها وتقدمت عليهم .

---

(١) اللسان : (شنن) .

(٢) ديوان الطرمّاح بن حكيم ، تحقيق : عزَّةحسن ، ص٢٩٣ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ، دارالشرق العربي ، بيروت .

(٣) الصحاح في اللغة : (شنن) .

(٤) مقاييس اللغة : (شن)

والأمر الثاني : يتمثل في معاناتها في طلب النجاة من عير وحشي لايرحم ؛ فهي لاتزال تفر منه ، وهو لايزال يطلبها ، قد أنجاها منه علمه أنها تحمل في أحشائها ماء صُلبه .

وما هذه الصورة التي تموج بأهوال متلاطمة من أمواج الخوف ، والفزع ، البؤس والجوع ، والفقر إلا صورة مستقاة من حال الشاعر الذي تنكبته الدهور ؛ فاحتوت تلك المشاعر ، وأبرزتها في قالب يبوح بها ، ويعرضها بأبلغ عبارة ، وأصدق حال .

ثم يستكمل عرضه لأحوال ذلك الحمار الوحشي ، الذي أخذ يقود أتنه فيقول :

يَـــؤُمُّ بِهِـــنَّ مِـــن بَطحـــاءِ نَخـــلٍ مَـــراكِضَ حـــائِرٍ عَـــذبٍ مَعـــينِ (١)

---

(١) ديوان الشماخ ، ص ٣٢٨-٣٣٤ .

وبهامشه : (بطحاء نخل : مسيل فيه دقاق الحصى من منازل بني ثعلبه ، وقيل : موضع بنجد من أرض غطفان ، ومنزل لبني عوف بن مرة على ليلتين من المدينة ، مراكض : جوانبه التي يركض فيها الماء ، الحائر : المكان المطمئن الوسط المرتفع الحروف يتحير فيه ماء السيل لا يجد له مسربًا ، مراضه : جوانبه التي يركض فيها الماء ، محاز الموضع الذي حاز لحياها منه الحصى ، حصاه : أي حصى رمله ، جِنابًا : أي ناحية ، جلد أجرب ذي غصون : أي كأن تلك الحصى جلد بعير أجرب لم يبق عليه من الوبر إلا قليل ، المغابن : جمع مغبِن وهي الآباط والأرفاغ ، وقال الأصمعي : هي أصول الفخذين وما احتزم بذلك المكان ، جادت بدرتها ، كثر اللبن وسيلانه ، وهي استعارة للعرق ، قرى : ما يقدم للضيف ، الجحن : القراد جعله كذلك لسوء غذائه ، الأرطى : شجر ينبت بالرمل تدبغ بورقه الجلود ، توسد أبرديه : اتخذت الظباء ظل الأرطى وفيئه كوساده ، الجوازئ : الظباء ، وقيل البقرة الوحشية ، عين : واحدها عيناء ، وهي صفة غالبة لبقر الوحش على الأغلب ، شرك الطريق : جواده ، وقيل هي التي لا تخفى عليك ولا تستجمع لك فأنت تراها ، وربما انقطعت غير أنها لا تخفى ، بخوصاوين : أراد بعينين غائرين ، ضيقين ، اللحج : غار العين الذي ينبت عليه الحاجب ، كنين : وصف للحج أي يكن العين ويستره ، شق الليل : أي طلع ، أشق : أي شقه طولاً) .

كَـــأَنَّ مَحـــازَ لَحيَيـــهِ حَصـــاهُ جَنابـــا جلـــدِ أَجـــرَبَ ذي غُضـــونِ
وَقَـــد عَرِقَـــت مَغابِنُهـــا وَجـــادَت بِـــدِرَّتِها قِـــرى حَجِـــنٍ قَـــتينِ
إِذا الأَرطـــى تَوَسَّـــدَ أَبرَدَيـــهِ خُـــدودُ جَـــوازِئٍ بِالرمـــلِ عـــينِ
وَإِن شَـــرَكُ الطَّريـــقِ تَوَسَّـــمَتهُ بِخَوصـــاوَينِ في لُحـــجٍ كَـــنينِ
إِذا ما الصُّـــبحُ شَـــقَّ اللَّيـــلَ عَنـــهُ أَشَـــقَّ كَمَفـــرَقِ الـــرَّأسِ الـــدَّهينِ

يمثل هنا موقع ذلك المكان الذي انطلق منه من (بَطحاءِ نَخلٍ) حين نظر إلى (مَراكِضَ حائِرٍ عَذبٍ مَعينِ) . فهي من ديار غطفان قوم الشاعر ، وكيف بدا وقع تلك الكلمات دافقة بالشعور النابض بالأمل ، فجاءت متوالية في صيغة التنكير المنبئ عن حالة يسودها التكثير والتفخيم ، فلفظة (مَراكِضَ) جاءت بصيغة منتهى الجموع (مفاعل) ، وهي تحمل معاني الانطلاق ، وتوحي بوميض شعاع مؤذن بقرب انفراج . وبيان لفظة حائِرٍ التي تعني المكان المطمئن المرتفع الوسط ، فيتحير فيها الماء ، ويتردد ويرجع من أقصاه إلى أدناه . وربما حملت بعض معاني الحيرة التي مرت بأحوال الشاعر في أوساط الطريق ، ثم أعقبتها لفظتي (عَذبٍ مَعينِ) واللتان تدلان على العذوبة ، والغزارة ، والوفرة . ثم يبين الشاعر أحوال ذلك الحمار الذي مدَّ لحييه نحو الأرض التي رفُعت الحصى عنها ، فكأنها جلد بعير أجرب لم يبق من وبر جلده إلا قليلا ؛ فينتقل بصورة ذلك المشهد انتقالاً فجائيًّا إلى وصف حال الناقة فيقول[1] :

وَقَـــد عَرِقَـــت مَغابِنُهـــا وَجـــادَت بِـــدِرَّتِها قِـــرى حَجِـــنٍ قَـــتينِ» .

(١) البيت الذي يسبق هذا البيت : « **كَأَنَّ مَحازَ لَحيَيهِ حَصاهُ . . .** » لقي إشكالا في الترتيب عند محقق الديوان ، فرأى أنه وصفٌ مصحَّف أصله « لحييها » والضمير عائد إلى تلك الناقة التي : « إِذا بَرَكَت عَلى عَلياءَ أَلقَت عَسيبَ جِرانِها كَعَصا الهَجينِ » فهو بحالها أليق ؛ لأنه متمم لصورة ذلك المشهد . ولكن هذا الرأي لا يزيل الإشكال ؛ لأن الأبيات التالية له جاءت متممة لوصف مشهد ذلك الحمار الوحشي ، ومن هنا آثرت الإبقاء على أصل الترتيب .

فهذا الانتقال المفاجئ هو محاولة للفت الانتباه إلى حال تلك الناقة التي يستقلها ؛ فقد بدأت في التآكل من مغابنها المتصببة عرقًا ، والذي اتخذ القراد قوتًا يقتات عليه .

ثم يعود الشاعر مرةً أخرى بشكل لافت للنظر لينتقل بمشهد الأحداث إلى صورة بقر الوحش العيناء، وقد توسدت من لهيب الهاجرة أوراق شجر الأرطى.

ويلفت الانتباه في هذا المشهد ترتيب بناء الألفاظ في الجملة البيانية التي بناها الشاعر وهو في خضم الأهوال والشدائد ؛ مما جعل شجر الأرطى هي التي تتوسد بأبرديها خدود هذه البقر الوحشي ؛ لتحميها من لفح القيظ ، ولهيب الهواجر . فصورة هذه المبالغة جاءت لتكشف حقيقة حال القحط والجدب التي محقت بأولئك القوم وكيف جاء هذا المشهد المنقلب عن طريق بناء حرف الشرط (إذا) ، ثم يعقبه في البيت الذي يليه بجملة شرطية أخرى . ولكنه يعاود مرة ثانية الانتقال في صورة لا تخلو من لَبْس ، فيبين حال الناقة التي كلَّت ، وأعياها التعب ، حتى غارت عيناها ؛ لينقلب بالمشهد كله رأسًا على عَقِب ، فينتقل بجواب الشرط إلى أول نقطة بدأها في القصيدة ، وأول مشاهد رحلته التي يمَّم شطرها نحو عرابة :

«إِلَيــكَ بَعَثــتُ راحِلَــتي تَشَــكّى كُلومــاً بَعــدَ مَقحَــدِها السَّــمينِ»

وكأن في تلك التقلُّبات ، وانتقال المَشَاهد والألفاظ فيها ، وتغايرها دون تهيئة تقوم على تسلسل الصورة اللفظية ، وترتيبها ما يشي بتقلبات الدهر من حال إلى حال ، دون إنذار مؤذن لاستعداد النفس وتهيئتها لصروف الدهر وأهواله . وهو ما عاناه الشاعر في أزمته الحانقة التي عصفت به ، ودفعته لركوب أمواج الرحلة العاصفة ، باحثًا عمَّا يسدُّ رمقه ، ورمق من يرعى حاجته ويقوم على شئونه ، حتى صعدت به تلك الأهوال علياء عرابة ؛ ليلتقي فيها راية مجده وسؤدده ، وجوده التي نصبها مُنْقَطِعَ القرينِ» .

فهذا المشهد أشبه مايكون بالحلقة المفرغة ، أو مكابدة ألم لاينتهي . وهو موصول بالمعنى الذي استهل به قصيدته (كلا يَوْمَي طوالة وصْل أروى . . .)

فليست هذه الرحلة المضنية ، وتغاير مشاهد الحيوان فيها في ظروف محاطة بأجواء العوز والفاقة ، وتقلبات الدهر ، وتحول صروف الليالي والأيام إلا لسان حال الشاعر ، وحاجته التي دعته للقدوم إلى المدينة باحثًا عمَّا يمتَارُّ به أهله ، في زمن عزَّ فيه الجواد .

القصيدة الثالثة :

مطلعها :

طالَ الثَّـواءُ عَلـى رَسـمٍ بِيَمئـودِ أَودى وَكُـلُّ خَليـلٍ مَـرَّةً مـودي

هي في هجاء الربيع بن غلباء أحد بني سليم[1] الذي يقول فيه :

نُبِّئـتُ أَنَّ رَبيعـاً أَنْ رَعـى إِبِـلا يُهـدي إِلَـيَّ خَنـاهُ ثـانِيَ الجيـدِ

وكان بينه وبين الشمَّاخ خصومة ، ولعلَّ سبب تلك الخصومة راجع إلى الخلاف الذي نشب بينه وبين زوجته السُّلَمية ، التي نازعته ، فأتت أهلها وادَّعت عليه طلاقًا ، فحضر معها قومها إلى المدينة ، واختصموا إلى كثير بن الصلت[2]. وكان عثمان ﷺ أقعده للنظر بين الناس فرأى عليه يمينًا ؛ فالتوى الشمَّاخ باليمين يحرضهم عليها[3].

---

(١) لا يوجد له ذكر في كتب التراجم ، غير أن ابن الأثير ذكر أن غلباء السلمي ربما كان والد الربيع ، وهو يعدُّ في أهل المدينة وله حديث واحد (أسد الغابة ، باب (العين واللام)) ، وذكر محقق الديوان أن ابن حجر ذكر أن له صحبة ثابتة مع النبي ﷺ في « الإصابة في معرفة الصحابة » ، الديوان ، ص١١١ .

(٢) كثير بن الصلت بن معد كرب الكندي ، كاتب الرسائل في ديوان عبد الملك ابن مروان ، أصله من اليمن ، ومنشؤه في المدينة ، كان اسمه قليلا ، وسمَّاه عمر ابن الخطاب كثيراً ، ولما ولي عثمان أجلسه للقضاء بين الناس في المدينة ، كان وجيها في قومه ، وروي بعض الأحاديث ، الأعلام ، ٢١٩/٥ .

(٣) الأغاني ، ١٨٨/٩ ، شرح : الأستاذ عبد علي مهنأ ، دار الجيل ، بيروت .

وروى الأصفهاني خبرًا آخر مشابهًا[1]: أن ناسًا من بني سليم يستعْدُون على الشمَّاخ ، وزعموا أنه هجاهم ونفاهم ، فجحد ذلك الشمَّاخ ، فأمر عثمان رضي الله عنه ، كثيرًا بن الصلت أن يستحلفه ، فاستحلفه على أمر تأوَّله له ليخرجه من محنته ، فحلف له ، وانصرف ينشد :

وَجاءَت سُلَيمٌ قَضَّها وقَضيضَها ... تُمَسِّحُ حَولي بِالبَقيعِ سِبالَها
يَقولونَ لي : احلف . فَلَستُ بِحالِفٍ ... أُخادِعُهُم عَنها لِكَيما أَنالَها
فَفَرَّجتُ كَربَ النَفسِ عَنّي بِحَلفَةٍ ... كَما شَقَّتِ الشَّقراءُ عَنها جِلالَها

القسم الأول : الوقوف على الطلل :

طالَ الثَّواءُ عَلى رَسمٍ بِيَمئودِ ... أَودى وَكُلُّ خَليلٍ مَرَّةً مودِ[2]
دارُ الفَتاةِ الَّتي كُنّا نَقولُ لَها ... يا ظَبيَةً عُطُلاً حُسّانَةَ الجيدِ
كَأَنَّها وَابنَ أَيّامٍ تُرَبِّبُهُ ... مِن قُرَّةِ العَينِ مُجتابا دَيابودِ
تُدني الحَمامَةَ مِنها وَهيَ لاهِيَةٌ ... مِن يانِعِ المَردِ قِنوانِ العَناقيدِ

أول مايلفت النظر في هذا المطلع لفظتا (طالَ ، والثَّواءُ) اللتان رسمتا هيئة طول هذا الثواء المستثقل على النفس المملول . ساعد على إثارة ذلك

---

(١) الأغاني : ص١٨٩ .

(٢) ديوان الشماخ : ص١١١-١١٣ .

وبهامشه : (الثواء : طول الإقامة ، الرسم : الأثر ، أو ما ليس له شخص من الآثار ، بميئود : حساء بأعلى الرمة لبني مرة وأشجع ، وأوْدى فلانٌ ، أي هلك ، فهو مودٍ . (الصحاح في اللغة (ودى) ، العطل المرأة التي لا حلي عليها ولم تلبس الزينة ، ابن أيام : ولد الظبية ، تربِّبه : تربيه وترعاه ، حتى يفرق الطفولة ، مجتابًا : لابسًا : ديابود : ثوب ينسج بنيرين وأصله فارسي معرب ، الحمامة ، تعني المرأة ، وقيل : الطائر ، قنوان العناقيد ، أي غزير الشعر).

الإحساس وتعزيزه في النفس : (رَسمٍ بِيَمئودِ) ، فقد وردت هذه الكلمة في القصيدة الزائية [١]:

فَظَلَّـــت بِيَمئـــودٍ كَـــأَنَّ عُيونَهـــا إِلى الشَمسِ هَل تَدنو رُكِـــيٌّ نَـــواكِزُ

مما ترجِّح أنها كانت تدور في أجواء مقاربة لطبيعة وظروف هذه القصيدة ومجريات أحداثها ، وأن هناك باعثًا ، ورابطًا يجمع بينهما ، خاصة أن بعض ألفاظ مطلعها جاءت في قوله :

عَفا بَطنُ قَـــوٍّ مِـــن سُـــلَيمى فَعـــالِزُ فَذاتُ الغَضا فَالـــمُشـــرِفاتُ النَّواشِزُ

فاسم (سليمى) و (المشرفات النواشز) تُشعر بدنُوٍ شديد ، وظرف مشابه ، ومقارب لجو الأحداث التي تحيط بظروف القصيدة ، وأن هناك أصداء تتردد بينهما ، وتدور حولهما . فكلمة (بميئود) لفظة تخرج باستثقال شديد ، وتذكر كثيرا بلفظة الوأد . فالواو والهمزة والدال : كلمةٌ تدلُّ على إثقال شيءٍ بشيء . يقال للإبل إذا مَشَت بثَقَلِها : لها وئيدٌ . أي مشيًا بِثِقَل . والموءودة من هذا ؛ لأنَّها تُدفَن حيّة ، فهي تُثْقَل بالتُّراب الذي يعلوها[٢].

«والثواء : طول المقام في المكان ، وثوى بالمكان ، أي : نزل فيه ، وبه سُمِّي المنزل مَثْوىً ، ويقال للمقتول : ثوى ، أي : أقام في قبره وهلك»[٣].

وفي المقابل في عجز المطلع هناك لفظة (أودى) وهي تعني : هلك . ففي الصحاح : (أوْدى فلانٌ ، أي هلك ، فهو مودٍ)[٤].

إضافة إلى آخرة كلمة ختم بها البيت (مود) ، فشيوع هذه الكلمة ومشتقاتها ظاهر في البيت ، وهو ما يوحي بشيوع حالة من المضض والاستكراه لدى

---

(١) ديوان الشماخ : ص١٧٣ .
(٢) مقاييس اللغة : (وأد) .
(٣) اللسان : (ثوى) .
(٤) الصحاح في اللغة : (ودى) .

الشاعر . ويلاحظ أن هناك حذفًا بعد كلمة (أودى) لا يستقيم الكلام إلا بتقديره ، يصح أن يكون ذلك المقدَّر كلمة (خليل) ، فيصبح الكلام : طال الثواء على رسم بميئود أودى الخليل ، ثم يلاحظ في هيئة بناء مفردات جملة الاستئناف التي ختم بها عجز المطلع (وكل خليل مرة مود) فقد جاءت على مجرى مضرب المثل ، وكأن فيها استقاءً للعظة والعبرة . والتنكير في لفظة (مرةً) يدل على نبرة مشوبة بحسرة شديدة .

وقد وقعت أيضًا مفردات هذه الجملة تذييلاً لمقطع المشهد السابق ، فقد لخصت معناه ، ولملمت متفرقات شعثه ، وقررته .

ويلفت النظر إحساس الشمَّاخ الدائم بالثقل والطول والمرارة . فهي ظاهرة تتكرر في كثيرٍ من مطالعة . !

ثم ينتقل إلى الحديث عن دار الفتاة ، وهي تقدر بمحذوف يجوز أن يكون فعلاً تقديره : « أتذكر دار الفتاة التي كنَّا » . وعلى هذا يستقيم المعنى . فهذه الفتاة كانت لها مكانة سامية لدى الشاعر ،لكن ذلك كان منه في زمن قد مضى ، بدليل قوله : (كنّا نقول لها) فلم يعد اليوم شيءٌ مما كان ! .

ثم يختم حديث القسم الأول من المطلع بمشهد لا يخلو من غفلة باحت بها كلمة (تُدني) وصورة (الحمامة اللاهية) التي يقصد بها المرأة ؛ فكل ذلك أجده قريبًا جدًّا من حال الشاعر مع امرأته السُّلَمية التي نازعته ، وكان له معها مواقف أدت إلى نشوب خصومة مع قومها بني سليم ، حتى غدت هذه الخصومة حاضرة في جلِّ أشعاره ؛ مما يرجح أن ذلك الخلاف كان ممتدًّا في حياته . حتى أصبح حدثًا بارزًا دارت عليه كثير من قضاياه المحيطة به . وهذا ماجعل صدري يطمئن إلى القول بأن هذا المطلع كان منسوجًا في هجاء الربيِّع ابن غلباء السلمي ، وروح الخصومة من تلك المرأة كانت حاضرة حضوراً طاغيًا في المشهد ، حتى غدا وقوداً يشعل به جذوة نفسه ؛ لتتقد حربًا في مهاجاة خصمه الربيِّع .

القسم الثاني : ذكر الراحلة :

هَل تُبلِغَنّي دِيارَ الـحَـيِّ ذِعلِبَـةٌ قَـوداءُ في نُجُـبٍ أَمثالُهـا قـودِ[1]
يَهـوينَ أَزفَلَـةً شَـتّى وَهُـنَّ مَعًـا بِفِتيَـةٍ كَالنَّشـاوى أَدلَجـوا غيـدِ
خوصَ العُيـونِ تَبـارى في أَزِمَّتِهـا إِذا تَقَصَّـدنَ مِـن حَـرِّ الصَّـياخيدِ
وَكُلُّهُـنَّ يُبـاري ثِـنيَ مُطَّـرِدٍ كَحَيَّةِ الطَّـودِ وَلّـى غَـيرَ مَطـرودِ
نُبِّئـتُ أَنَّ رَبيعًـا أَنْ رَعـى إِبِـلا يُهـدي إِلَـيَّ خَنـاهُ ثـانِيَ الجيـدِ

ينتقل الشماخ في هذا القسم انتقالاً مغايراً عما سبق ، ليس في المعنى فحسب ؛ بل في نبرة الخطاب وتصاعدُ حِدَّته ؛ إذ جاء الاستفهام بصورة فجائية ، أعقبها تعالٍ في الروح ، واستحضارٌ لقوتها . فبعد الهدوء الذي ساد في قوله : « تُدني الحَمامَةَ مِنها وَهيَ لاهِيَةٌ » ، جاء ترتيب الفجاءة هنا مبنيًّا على قوله : (لاهية) إذ هزَّ كيانه ذلك الحدث ، وغيَّر نهجه ، وقلب حياته : فنقله من كونه مطمئنًا غير عابئ بالظنون ، إلى شخص حادٍّ ، صارم ، فترى ذلك الانتقال يصعَّد في تلك اللهجة بصيغة الاستفهام التقريري التفخيمي ، يلي ذلك جملة من الألفاظ أظهرت تنامي حدة المشهد بشكل واضح ؛ مثل : (ذعلبة ، قوداء ، يهوين ، خوص العيون ، الصياخيد) .

---

(١) ديوان الشماخ : (١١٤) .

وبهامشه : (ذعلبة : الناقة السريعة ، وقيل البكرة الحدثة ، القوداء : الطويلة العنق والظهر ، والنجيب من الإبل : القوي منها الخفيف السريع ، يهوين : يسرعن ، أزفلة : جماعة ، كالنشاوى : مفرده نشوان وهو السكران ، أدلجوا : ساروا الليل كله أو أوله ، غيد : مائلة الأعناق ، خوص العيون : غائرات العين ، تباري : تتسابق ، تقصدن : تغيرت بعد السمن ، صياخيد : هاجرة الحر ، يباري : يعارض ، ثني مطرد : في زمام مثنى مفتول ، الطود : الجبل) .

فصفات هذه الناقة تسفر عن مظاهر اعتزاز ، وانتفاش روح ، فليست هذه الناقة تلك التي ارتحل بها إلى عرابة الأوسي ، وهي (تَشَكّى كُلوماً بعدَ مَقحَدِها السَّمينِ) حتى غدى (رَحى حَيزومِها كَرَحى الطَحينِ) ، بل تراها هنا تثَّني (ثِنيَ مُطَّرِدٍ كَحَيَّةِ الطَودِ وَلّى غَيرَ مَطرودِ) ، فإن كانت الحية ترمز إلى معاني الدهاء ، والحيلة ، والمكر ، فإن الطود يُكْسبها تعظميًا وتفخيمًا ، حتى غدت في اعتدال واستقامة تسير سيرَ غيرِ مبالٍ ، ولامكترث بمن حوله . ثم يبدأ في مهاجاة خصمه الربيع فيقول :

نُبِّئــتُ أَنَّ رَبيعًــا أَنْ رَعــى إِبِــلاً يُهــدي إِلَــيَّ خَنــاهُ ثــانِيَ الجيــدِ

هذه القصيدة تشبه كثيراً قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها[1] :

طــالَ الثــواءُ علــى رُسُــومِ ديــارِ قفــرٍ أُسَــائِلُهَا ومَــا اسْــتِخْبَارِي

فقد شابهتها في بناء مطلعها ، وتدرج معانيها شيئًا فشيئًا حتى بلوغ الغرض ، وهو هجاء زرعة بن عمر الكلابي : حيث قال :

نَبِئــتُ زُرعَــةَ وَالسَــفاهَةُ كَاسِمِهــا يُهــدي إِلَــيَّ غَرائِــبَ الأَشــعارِ

فمذاهب الشعراء في بناء أغراضهم قد تتلاقى أو يداخلها التأثر ، خاصة إذا ما علمنا أن الشماخ ينتمي إلى ذات القبيلة التي انحدر منها النابغة ، وربما كان معاصرًا له . والمهم أن مجريات وصف الراحلة تنبئ عن حالٍ من استيقاظ النفس واستحثاث همِّتها ، أظهرها أسلوب الاستفهام (بهل) . تلاها مظاهر قوة هذه الناقة التي تهوي بسرعة فائقة (فِتيَةٍ كَالنَّشاوى أَدلَجوا غيدِ) .

---

(١) ديوان النابغة الذبياني : جمع وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، ص١٠٣ ، الشركة التونسية للتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦م .

ويلفت الانتباه حرف الباء الداخلة على (فتيةٍ) ، ومافيها من معاني الاعتداد بهولاء الفتية الذين يهوون في كثرة ، وهم غير متفرقين ، ثم تصويرهم في هيئة تشْبه من أصابه نشوة الخمر ، وبلغ أعلى درجات التلذذ ، والاستمتاع بها . فهم مائلو الأعناق ؛ ممايشير إلى علو همتهم ونشاطهم ، وقوة عزمهم في مضيهم نحو غايتهم ، التي أوحت بمعناها كلمة (أدلجوا) فهم غير مبالين بسيرهم في دلجة الليل ، حتى غارت أعينهم من شدة السير وسرعته ، ذلك ما أبانته لفظة (خوص) وصوتها الغائر في جدار النفس !! .

ويجدر التنبيه ـ هنا ـ إلى الصورة التشبيهية ؛ فهي أبلغ أداء من غيرها ، كالاستعارة مثلاً ؛ لأنها أظهرت معنى الانتشاء والزهو والخيلاء دون ذهاب العقل ، وهذا لا يكون في الاستعارة . وجملة (تبارى في أزمتها) من الكلام الحر العالي الذي يحضر زَهْوًا في النفس ، وعجبًا . وهو مناسب لصورة النشاوى ومن جنس مقامها . ويلاحظ صوت كلمة (صياخيد) وأثرها الحسي في إظهار معاني الشدة والقوة . ثم ختم المشهد بكلمة (يباري) وما تلاها من صورة حيَّة الطود ، ومالهذه اللفظة من معاني المباراة والمعارضة ، التي تتجانس مع سابقتها (تبارى) صوتًا ، ومن جنس معدنها بيانًا ! .

فهذا الاعتزاز البادي على مشهد الراحلة يبدو ملائمًا جدًّا لتهيئة النفس للدخول في صلب الغرض ، وفتْح جبهة مهاجاة طويلة الأمد ، يطال لظاها الربيع بن غلباء ، حتى يصل به ذلك إلى غاية نشوة الفخر حين يقول :

إِنّي امرُؤٌ مِن بَني ذُبيانَ قَـد عَلِمـوا أَحمي شَـريعَةَ مَجـدٍ غَـيرِ مَـوردِ
أَنـا الجِحاشِـيُّ شَـماخٌ وَلَـيسَ أَبي بِنِخسَـةٍ لِنَزيـعٍ غَـيرِ مَوْجُـودِ

القصيدة الرابعة :

مطلعها :[1]

ماذا يَهيجُكَ مِن ذِكرِ ابنَــةِ الراقــي إذ لا تَــزالُ عَلــى هَــمٍّ وَإِشــفاقِ

هي في مدح عَرابة الأوسي ، وقد استهلها الشاعر بذكر الصاحبة ابنة الراقي في ثلاثة أبيات ؛ ذكر فيها همَّه وإشفاقه عليها ، ثم انتقل في البيت الثاني إلى التغني بصفة واحدة فيها تحديداً ، وهو شعرها الغزير المنسدل البرَّاق .

بعد ذلك ينتقل انتقالاً سريعًا إلى الحديث عن الناقة وكان مدخله إليها الاستفهام التقريري ؛ ليمتد في ذكر وصفها في تسعة أبيات ، دارت حول القوة الصلابة والسرعة والسير الدءوب المتواصل ، والاندفاع نحو غايتها في خفة ونشاط واطمئنان ؛ فهي (عَيرانَةٌ ذاتُ إِرقالٍ وَإِعناقِ) وهي (حَرفٌ صَموتُ . . . جُلذِيَّةٌ بِقُتودِ الرَّحلِ ناجِيَةٌ) وإذا رميت بها في طريق طَامِس لا مسلك فيه جدَّت وأسرعت بالمسير (عَلى سِكَّةِ الساري ، فَجاوَبَها حَمامَةٌ مِن حَمامٍ ذاتُ أَطواقِ) ، وهي لا تزال كذلك حتى ظلت تسوق بعينها في الفلاة مكانًا وأثرًا بارزًا (غَيرَ مُنساقِ) ، وهي تسرع في وسط ذلك الطريق الواسع ، حتى إذا ما لاح لها ، أسرعت إليه ، وانصبَّت انصباب المطر . . . ثم ينتقل مباشرة إلى غرض القصيدة :

ويمتد في امتداح عرابة الأوسي وذكر فضائله في تسعة أبيات يختم بها القصيدة .

---

(١) ديوان الشماخ : ص٢٥٣ ،

إِلَيــكَ أَشــكو عَــرابَ اليَــومِ خَلَّتَنــا يــا ذا العَــلاءِ وَيــا ذا السُــؤدُدِ البــاقي

وبشرحه : (يهيجه : يحرك شوقك ويثيره ، الإشفاق : عناية مختلطة بخوف فإذا عدي بـ(من) فالخوف فيه أظهر ، وإذا عدي بـ (على) فالعناية أظهر ، أثيث : غزير طويل ، الفاق : البان ، وقيل الزيت المطبوخ ، وروى ثعلب أن الفاق : المشط ، الأساود : جمع أسود وهو اسم لعظيم من الحيات ، لاتَسْلَى : لاتنْسى).

القسم الأوَّل :

ماذا يَهيجُكَ مِن ذِكرِ ابنَــةِ الراقــي إذ لا تَــزالُ عَلــى هَــمٍّ وَإِشــفاقِ
قامَت تُريكَ أَثيثَ النَّبــتِ مُنسَــدِلاً مِثلَ الأَساوِدِ قَــد مُسِّــحنَ بِالفــاقِ
مــاذا يَهيجُــكَ لا تَســلى تَــذَكُّرَها وَلا تَجــودُ بِمَوعــودٍ لِمُشــتاقِ

يفتتح الشمَّاخ مطلع القصيدة بالسؤال عن سبب مايهيج ذكراه من الصاحبة ابنة الراقي ، هذا السؤال مشوب بشيء من معاني الحيرة والإنكار في الظاهر ، وفيه دلالة أيضًا على التوبيخ . . كيف تتذكرها وهي لاتجود ؟!! ثم ينتقل في البيت الذي يليه إلى الصورة الاستعارية لشَّعر ابنة الراقي لتذهب بعض هذه الحيرة التي أصابته وتغري النفس بشيء من الأمل ، لكنه يعود باستنكار آخر جاء تأكيدًا بلفظ الاستفهام السابق ليجعل الشاعر في مستقر حيرته ! .

وسياق المعاني يبدي منه استحثاثًا لمزيد من التهيج والاستثارة !! . والتعبير بالفعل فيه دلالة على ذكرى تتجدد .

وقد بنى خطابة على التجريد ؛ ليتيح لنفسه مساحة يرتدُّ إليه فيها شيء من التأمل والاستغراق ، ومخاطبة الذات بشيء من الحيادية والتجرد[1]؛ « فيفصل ذاته عنها ، ويجردها ، ليجعلها في موضع اللوم ، وهذا تجسيد للموقف النفسي الذي يعيشه أمام المرأة وموقفها ، حتى إن كل بيت من هذه الأبيات احتوى على تجريد ، فالكلمات (يهيجك ، تريك ، تهيجك ، تسلي ، تسلينك) تُحْدِثُ رنة موسيقية تُشعر بأن الأمر لايتعلق بالمتكلم ، وإنما يتعلق بالمخاطب الذي هو في الأصل الشاعر أو المتكلم نفسه »[2].

(١) ربما جاء مسمى مصطلح التجريد لهذا اللون من الخطاب ؛ نظراً لهذا المعنى الذي تثيره ؛ ففيه تتجرد النفس من عواطفها ، وتوضع موضع الاستقلال ، والحيادية !! .
(٢) قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي ، ص٩٣ .

والتهيج هنا بمعنى : تحرك الشوق ، وإثارته . والإشفاق جاء متعديًا بـ(على) فانصراف معناه إلى العناية فيها أظهر . كما ذكر ذلك الراغب في مفرداته[1].

وقد جاء اسم الصاحبة حاملاً نبرة ذات دلالة معنوية مكتسية بمعاني الرقي والرفعة ، وقد يكون من الرقية ؛ أي : كأنها تبعث ماستكن ً في فؤاده من لواعج الشوق ونوازع الحنين! . ثم أعاد الاستفهام ملحًّا على معرفة سبب ذلك الشوق ، والإثارة ، وقد خصَّ الشَّعر بالوصف من الصاحبة ، وإظهار مفاتن الحسن والملاحة فيها ، وهو ما يرمز للكثرة والغزارة ، والثبات . وقد جاءت الاستعارة التصريحية في صورة تُظْهر بريقه ولمعانه ، وهي صورة مثيرة ، لإغراء النفس (قامَت تُريكَ أَثيثَ النَّبتِ مُنسَدِلاً) حيث شبَّه الشَّعر بالنبت بجامع الثبات والغزارة والأصالة وحذف المشبه وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ويلاحظ أن النبت والشَّعر متقاربان في روابط الشبه ولم تبعد بهما المسافة ! .

وهذا يتلاءم في دلالة رمزيته مع أحوال الممدوح عرابة ، الذي يرى فيه الشاعرمصدرًا ملهمًا للشعر ؛ فهو سيد جواد ، ثابت المواقف ، وافر العطاء ، كثير الهبات ، يسد حاجات المحتاجين ، ويعين على نوائب الدهر . . .! .

وكل هذه المعاني التي اشتملت عليها أبيات المطلع ؛ بدءًا من الاستفهام الإنكاري المبطن باستحثاث النفس على التهيج ، ودلالة اسم الصاحبة (ابنة الراقي) ، وإشفاق الشاعر عليها ، وهمُّه بها ، والصورة الاستعارية المغرية لشَعر الصاحبة التي جاءت لتبرز صفات الغزارة والثبات واللمعان التي هي مظهر من من مظاهر الحسن والجمال كل هذا يسوق النفس إلى الاطمئنان ،

(١) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، مادة : (شفق) مكتبة نزار مصطفى الباز .

بأن اشتمال المطلع على هذه المعاني تهيئ نفس المتلقي بأن الحديث آنس به المقام ؛ لكي يكون مفتتحًا لأمر محمود تحبه النفس وتتشربه ، وهو صالح ومهيّأ لمقام المدح والتغني بأمجاد الممدوح ؛ مما حدا بالشاعر إلى التبكير في الدخول في وصف الراحلة ، وكأنه يريد الإسراع في الدخول إلى رحلة التغني بمآثر وفضائل عرابة الأوسي ! .

القسم الثاني ، حديث الرحلة والراحلة : [1]

هَل تُسلِيَنَّكَ عَنها اليَومَ إِذ شَحَطَت ... عَيرانَةٌ ذاتُ إِرقالٍ وَإِعناقِ

حَرفٌ صَموتُ السُّرى إِلاَّ تَلَفُّتُها ... بِاللَيلِ في سَأَدٍ مِنها وَإِطراقِ

جُلذِيَّةٌ بِقُتودِ الرَّحلِ ناجِيَةٌ ... إِذا النُجومُ تَدَلَّت عِندَ تَخفاقِ

وَإِن رَمَيتَ بِها في طامِسٍ دَأَبَت ... إِذا تَرَقرَقَ آلٌ بَعدَ رَقراقِ

حَنَّت عَلى سِكَّةِ الساري فَجاوَبَها ... حَمامَةٌ مِن حَمامٍ ذاتُ أَطواقِ

لَمّا اِستَفاضَ لَها الوادي وَأَلجَأَها ... مِن ذي طُوالَةَ في عَوجاءَ ميفاقِ

---

(١) ديوان الشماخ : ص٢٥٤-٢٥٦ .

وبشرحه : (شحطت : بعدت ، عيرانة : الصلبة النشيطة من الإبل ، إرقال : سرعة سير الإبل ، إعناق : ضرب من سير الإبل منبسط ، حرف : صلبة ضخمة ، سأد : الإغذاذ في السير ، جلذية : قوية شديدة صلبة ، قتود : خشب الرحل ، ناجية : سريعة ، تدلت عند تخفاق : دنت عند المغيب ، دأبت : جدت وأسرعت ، ترقرق الآل : اضطرابه وحركته ، رقراق : إذا اشتد الحر ، سكة : الطريق المستوي ، الساري : اسم موضع ، استفاض : اتسع ، ذي طوالة : بئر في ديار بني فزارة ، وقيل : جبل ، عوجاء : أي ثنية عوجاء ، ميفاق : مبالغة من أفق يأفق من الآفاق ، العلم : شيء ينصب في الفلوات تهتدي به الضالة ، وهو الجبل والأثر أيضاً ، الجو : ما اتسع من الأرض واطمأن وبرز ، رقد : اسم جبل أو واد في بلاد قيس ، وقيل : هضبة مطمئنة في بلاد بني أسد ، تخدي : تسرع ، سح النجاء : سريعة تصب الجري صبا كالمطر ، بارق : سحاب ذو برق ، ساقاً الأولى : ذكر الحمام ، والثانية : ساق الشجرة).

ظَلَّت تَسوقُ بِـأَعلى عَينِهـا عَلَمـاً مِن جَوِّ رَقـدٍ رَأَتـهُ غَـيرَ مُنسـاقِ
تَخدي يَداها وَرِجلاها عَلـى شَـرَكٍ سَحَّ النَّجاءِ بِـهِ مِـن بـارِقٍ بـاقِ
كادَت تُساقِطُني وَالرَّحلَ أَن نَطَقَـت حَمامَةٌ فَـدَعَت سـاقاً عَلـى سـاقِ

وأظنُّ أنَّ في سرعة انتقال الشاعر إلى وصف الراحلة والرحلة ما يسوِّغ له سرعة سلوك الطريق نحو الغاية التي يتطلع إليها!! .

فمظاهر السرعة بادية على أوصاف هذه الناقة ، وانظر إلى جمال الاستعارة التي أوحت بقوة ونشاط وسرعة تلك الناقة ، فهي عيرانة ، أي تشبه البعير حيث استعار للناقة صفة البعير ليسبغ عليها رداء القوة والجسارة ، وحذف المشبه الناقة وأبقى صفتها على سبيل الاستعارة التصريحة ؛ وذلك بجامع قوة التحمل وهيئة الذكورة الموحية بالشدة والتماسك ؛ فهي ذاتُ إِرقالٍ وَإِعناقٍ ، وهي حرف حيث استعار لها صفة الحرف بجامع القوة والصلابة وهي صموت السرى ، تغذُّ السَّير ، ولها إطراق . وهي ـ أيضًا ـ دءوبة السير مجدِّة ، نشطة لا يعيقها نحو غايتها عائق . وهي ناجية حيث استعار لها صفة النجاء على سبيل الاستعارة ليصور مظهر هذه الرحلة وحالها في المسير ، وهذا أمر يتكرر في أوصاف الناقة ، ومظاهر الرحلة على ألسنة الشعراء الجاهليين عامة .

الأمر الملاحظ في سير هذه الناقة مظاهر الارتياح البادية في سيرها ؛ فسكتها مستوية ، قد استفاض لها الوادي اتساعًا ، والحمام ذوات الأطواق تجاوب حولها . وفي هذا كله ظلت هذه الناقة تغذُّ خطاها في الفلوات ، وهي مستبشرة مطمئنة ، تستشرف متطلعة بأقصى نظرها ، عَلَمًا بارزًا لائحًا لها في الأفق الفسيح تحطُّ رحلها عنده ، حتى إذا ما وقع نظرها عليه صبَّت سيرها انصباباً ، كسح المطر المنهمر ، نحو تلك الغاية المنشودة .

فهذا العلم البارز هو دافعها المستحث ؛ لبذل كل طاقتها ، في سبيل الوصول إليه ، وهو أيضًا ما يهوِّن عليها مشاق التعب والنصب ، ويجعلها تستلذ الخطى نحوه ، غير آبهة بما تلاقي!! .

فمن المناسب جدًّا أن يكون هذا العَلم هو إشارة رامزة في خفاء من الشمَّاخ لحال الممدوح عرابة ، الذي ظَّل ينشده في فلوات الطريق ، ويستهدى إليه ، بغية النزول عنده ، والركون إليه في قضاء حاجاته ، عندئذٍ يكون ذلك العلم مستعارًا له حيث شبهه بالعلم البارز وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية وذلك بجامع البروز والثبات والرسوخ والرفعة ! .

فمظاهر هذه الرحلة تتناسب مناسبة ظاهرة مع مقصد الشاعر ودافعه واحتشاده ، وطمعه في نيل مراده ، وبث شكواه وعوزه الذي أظنه كان هاجسًا ظلَّ يسيطر على كثير من همومه ووجدانه الذي يدفعه إلى التكسب وسد الحاجة .

وما ذلك التهيُّج الذي ظل يستثير همَّه وإشفاقه في مستهل مطلعه حين قال :

« ماذا يَهيجُكَ مِن ذِكرِ ابنَــةِ الراقــي إذ لا تَــزالُ عَلــى هَــمٍّ وَإِشــفاقِ

إلا نمنات طغت على إحساس الشاعر ، وكشفت عن مخبوء نفسه ، وحال عوزها ، فصدع مستفهما عنها ، حتى إذا ما أراد أن يهدِّي روعتها ويسكِّن قلقها تراه في البيت الثاني يريك منها ما يستحث النفس على ذلك ، ويثير فيها معاني العطاء والثبات ، والوفرة والغزارة :

قامَت تُريكَ أَثيثَ النَّبــتِ مُنسَــدِلاً مِثلَ الأَساوِدِ قَــد مُسِّــحنَ بِالفــاقِ

وجملة : (قَد مُسِّحنَ بِالفاقِ) موصولة بغرض الشاعر ، وهيّأت للمعنى ومكَّنت له فجَسَرت وصل المديح ؛ فهي إشارة منبئة عن صريح المقصد الذي يستكن داخله . فمسحُ فاقة الشاعر وإصلاح أحواله كانت مقصداً من مقاصده ، وهمًّا من همومه الشاغلة .

والباحث عن ملامح شخصية الشماخ رضي الله عنه ، وعن صفات السيادة عنده ، ونبيل الطباع لا تسعفه الرويات في ذلك ، سوى أنه عُرف بأنه أعرابي الطبع جافٍ ، لم يرقق الدين طبعه ، ولم ينل من فيض عذبه وزلاله بحظٍّ وافر[1]، « لأنه كان يعيش بالبادية ، وسط قوم أسلموا آخر الناس ، وارتدُّوا أول الناس ، ثم عادوا إلى الإسلام بعد حروب الردة ، فظلوا على خشونتهم وجفاوتهم . وإن عُرف من تاريخ حياته أنه اشترك في موقعة القادسية ، وفي فتح أذربيجان . بيد أنه لم يكن لاشتراكه في تلك الفتوح أي أثر في شعره ؛ بل ظل شعره بعد إسلامه كما كان ، جاهلِّي الطابع ، وعر اللغة ، فيه كزازة كما يقول[2] : ابن سلام الجمحي » .

وهذا يؤكده جملة ماجاء في شعره ، فمعالم شخصيته بادية فيه ، وإن كانت له عُدَّة في مشارف الصحبة حين إسلامه ، ومشاركة في بعض الغزوات ، وحَسْبه من فضل . وأنا هنا أحكم على الشعر الذي جاء به ديوانه ، ومعاذ الله أن أقدح في جناب حق الصحابة !! .

وقد روى له الأصفهاني بيتًا قاله لرسول الله ﷺ يظهر شيئاً من جفاء طبعه:[3].

تَعَلَّم رَسولَ اللَهِ أَنّا كَأَنَّنا أَفَأنا بِأَنمارٍ ثَعالِبَ ذي غِسلِ

وجملة الأمر أن طباعه التي عرفت عنه كانت أعرابية ، فيها جلافة البداة ، لكنَّا نرى صدق مديحه لعرابة . ولم يكن عرابة ملكًا أو أميرًا ذا سلطان فيطمع في عطاياه بمثل مايطمع به الشماخ ، فلم تأسره الألقاب ويتتبعها بالثناء خاضعًا

(١) مقدمة الدكتور عمر الدسوقي لديوان الشماخ ، ص١٠ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ، ص١٣٢ .
(٣) الأغاني : ص١٨٤ .

لبرقها ، وإنما أسرته مواقف الرجال وعزائمهم التي هي أصل الشرف ونبعه ، فتراه يقول :[1].

أَنتَ الأَميرُ الَّذي تَحنو الــرُّؤوسُ لَــهُ قَمــاقِمُ القَــومِ مِــن بَــرٍّ وَآفــاقِ
أَنتَ الــمُجَــلّي عَنِ المَكروبِ كُربَتَهُ وَالفــاتِحُ الغُــلَّ عَنــهُ بَعــدَ إيثــاقِ
وَالشاعِبُ الصَدعَ لا يُرجى تَلاؤُمُــهُ وَالــهَمَّ تُفرِجُهُ مِــن بَعــدِ إغــلاقِ
في بَيــتِ مَــأثُرَةٍ عَــزٍّ وَمَكرُمَــةٍ سَبّاقُ غاياتِ مَجــدٍ وَابــنُ سَــبّاقِ
ضَخمُ الدَّسيعَةِ مِــتلافٌ أَخــو ثِقَــةٍ جَزلُ الــمَواهِبِ ذو قيلٍ وَمِصــداق

فترى تلك الملامح قائمة على التغني بمآثر عرابة ، وصفات السيادة التي حاز عليها ، واستحق من أجلها صفة الأمير ، فقد دارت حول جلاء المكروب ، وشعب الصدع ، وتفريج الهم ، وانحصرت في صفات البذل ، والعطاء ، فهذه الصفات ، هي التي استأثرت ببال الشاعر ، وهيجته ، واستحوذت على همِّه ، وقد شاع اعتماد الشاعر على أسلوب الاستعارة في رسم كثيرٍ من مجريات وأحوال هذه القصيدة منذ افتتاح مطلعها ومعالم رحلتها .

القصيدة الخامسة

مطلعها :[2]

عَفَت ذَروَةٌ مِــن أَهلِهــا فَجَفيرُهــا فَخَرجُ الــمَرَوراةِ الــدَّوانِي فَــدورُها

يبدأ الشاعر هذا المطلع بذكر عفاء الديار ، ثم ينتقل في البيت الثاني إلى ذكر وصف الصاحبة (الميلاء) ليمتد في ذكر أحوالها خمسة عشر بيتًا ، ابتدأ

(١) ديوان الشماخ : ص٢٥٧ . وشرحه : (الأمير : الآمر ، قماقم : جمع قمقام : وهو السيد الكثير الخير الواسع الفضل ، المجلي : الكاشف ، ضخم الدسيعة ، أي عظيم العطية وكثيرها ، ذوقيل : يعد بالقول ويصدق في وعده) .
(٢) ديوان الشماخ : ص١٦١ .

فيها بوصف أطلال دمنتها التي تسديها الصبا وتنيرها ، ثم تخفُّ خباؤها من جنوب عنيزة ، مارًّا ببيان وتحديد مصيرها المحتوم بين حرة ليلي أو بدر متى ما حلت ديار عسفان أو دنت منها . ثم يطلب البكاء عليها (إذا خَرَجَت مِن رَحرَحانَ خُدورُها) متسائلا في دهشة : ماذا عليها (لَو بَذَلَت مِنَ الوُدِّ ما يَخفى وَما لا يَضيرُها) ؟!! .

ثم ينتقل بشعر عذب رقيق ليصف بعض مشاهد فراق المحبوبة بعد أن أرتهم حياض الموت ؛ وذلك في صورة رائعة تصف مشهد يوم الرحيل و (كَأَنَّ غَضيضًا مِن ظِباءِ تَبالَةٍ يُساقُ بِهِ يَومَ الفِراقِ بَعيرُها) ، جاعلاً تعلُّق عيون الناظرين بتلك الظعائن التي تحملها كمن أَلِفَ طعم العسل لذة وحلاوة . ثم يبرز هوية معدن تلك الصاحبة الكنانية . وينتقل انتقالاً لطيفًا ؛ ليُظْهر طيب رائحتها التي لاتبرح عنها ، وإنْ صرفتها الصوارف عن الاهتمام بذلك . وقبيل أن يختم مشهد هذه الصاحبة ينتقل انتقالاً مفاجئًا ؛ ليبين حالها وهي تَعوذُ بِحَبلِ التَّغلِبِيِّ « مظهرًا أنها (لَو دَعَت عَلِيَّ بنَ مَسعودٍ لَعَزَّ نَصيرُها) . ويختم بمدى بعد وصلها وشدة قطع حبلها ؛ فيتعذر الوصول إليها سوى على الناقة القوية السريعة التي تبزُّ أقرانها السريعات إذا سرن معها ! .

ثم بعد ذلك ينتقل في وصف مفصَّل لهذه الناقة القوية ، التي سيدرك بها وصل محبوبته ، وقد استغرق ذلك منه اثني عشر بيتًا ، أبان فيها ما تميزت به من مظاهر القوة ، والنجابة ، والسرعة ، ثم يختم القصيدة ببيت واحد ، يبين فيه أن علاجه إذا اعترته الهموم ، وجاشت في صدره ، لا يكون إلا على ناقة من هذا الطراز .

عَلى مِثلِها أَقضي الـهُمومَ إِذا اِعتَرَت إِذا جاشَ هَمُّ النَّفسِ مِنـها ضَـميرُها

فالقصيدة تمثل في مجملها حالة من جيشان ضمير النفس ؛ حين اعترتها الهموم ، وأحاطت بها من كل جانب .

القسم الأول من المطلع : [1]

عَفَت ذَروَةٌ مِن أَهلِها فَجَفيرُها ... فَخَرجُ المَرَوراةِ الدَّوانِي فَدورُها

عَلى أَنَّ لِلمَيلاءِ أَطلالَ دِمنَةٍ ... بِأَسقُفَ تُسديها الصَّبا وَتُنيرُها

وَخَفَّت خِباها مِن جَنوبِ عُنَيزَةٍ ... كَما خَفَّ مِن نَيلِ المَرامي جَفيرُها

فَإِن حَلَّتِ المَيلاءُ عَسفانَ أَو دَنَت ... لِحَرَّةِ لَيلى أَو لِبَدرٍ مَصيرُها

---

(١) ديوان الشماخ : ص١٦١-١٦٥ .

وبهامشه (ذروة : واد لبني فزارة ، وقيل : جبال ليست بشوامخ وهي لبني سليم ، الخرج : اسم موضع في اليمامة ، وقيل : الوادي الذي لامنفذ فيه ، المروراة : الأرض أو المفازة التي لا شيء فيها ، وقيل : القفر المستوي ، أسقف : بلد قِبل رحرحان ، الصبا : ريح طيبة تأتي من قبل وسط المشرقين . خفت : ارتحلت ، المرامي : جمع مرمى وهو المقصد التي ترمى إليها الآمال ، عسفان : قرية على ستة وثلاثين ميلا من مكة على طريق المدينة والجحفة ، حرة ليلى : موضع لبني مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان ، وقيل : من وراء وادي القرى من جهة المدينة فيها نخل وعيون ، بدر : ماء مشهورة بين مكة والمدينة ، رحرحان : جبل لبني ثعلبة بن سعد ، ثمت : لغة في ثم ، غضيضًا : فاترة الطرف ، تبالة : بلدة بقرب الطائف على طريق اليمن من مكة ، الأقحوان : من نبات الربيع مفرض الورق دقيق العيدان له لون أبيض ، الإثمد : حجر يتخد منه الكحل ، أصداف : جمع الصدف وهو غلاف اللؤلؤ ، النؤر : دخان الشحم يعالج به الوشم ويحشى به حتى يخضرَّ ، يمار : من مار يمور : أي سال وجرى ، حَصانًا : في الأصل هي المرأة العفيفة المتزوجة ، استعارها الشاعر للدرة لشرفها ومنعة مكانها ، شوبا : العسل المخلوط بماء أو لبن ، مجاجات : ما مجته من أفواهها ، شُمَّذ بأعجازها : رافعات لأذنابها ، كنانية : منسوبة إلى كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر ، الصناع : الحاذق الماهر ، العلات : المرض ، المدنف : الذي براه المرض حتى أشفى على الموت ، علي بن مسعود بن مازن بن ذئب ابن حارثة بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد من غسان ، جذم : قطع ، أميرها : زوجها أو ولي أمرها ، مرة : أي ناقة قوية ، إعناق : من أعنقت الناقة أي أسرعت ، النواجي : الأينق السريعات ، ضريرها : التي سرن معها) .

لِيَبكِ عَلى الـمَيلاءِ مَن كانَ باكِيًا إذا خَرَجَت مِن رَحرَحانَ خُدورُها
وَماذا عَلى الـمَيلاءِ لَو بَذَلَت لَنا مِنَ الوُدِّ ما يَخفى وَما لا يَضيرُها
أَرَتنا حِياضَ الـمَوتِ ثُمَّتَ قَلَّبَت لَنا مُقلَةً كَحلاءَ ظَلَّت تُديرُها

أول ما يعانق مخيلاتنا في هذا المطلع ، الصدع بالفعل (عفت) ؛ فرسم هذا الانعفاء لحظة من لحظات اليأس الجاثمة على صدر الشاعر ، فاختصر لنا طبيعة العلاقة التي بناها مع هذا المكان ؛ فقد اندثرت معالمه وانطمست ، ولم يبق فيها أثرٌ لأخصِّ ما يؤنس به النفس ويسكن روعتها! . فقد تكون شواهد القوم حاضرة في هذا المكان من نؤي ، وأثاف ، ودِمَن وبقايا آثار ، لكن من تُحيَّا بهم الديار وتحيا وتمتلئ بهجة وسروراً لم يعد لهم أي أثر . وهذا هو مصدر الهمِّ الذي جاش في نفس الشاعر ، ولم يستطع أن يغالبه . على أن هناك بادرةً كان بالإمكان استثمارها في ذهاب شيء من هذه الروعة الجائشة وانطفائها ، وهو ما أسدته رياح الصبا من ريح طيبة تأتي بها من أطلال دِمَنِ محبوبته الميلاء ، وتزكِّي نفسه الحَرَّى ، لكن ذلك لم يكن . فقد ارتحلت ولم يعد للأماني إليها طريق! .

وهذا ما أثار حفيظة النفس ، فاستهلَّها دعوة للبكاء ، أعقبها استفهام محيِّر يبحث عن سبب الامتناع عن بذل الود ولو كان خافيًا ، فهو لايضيرها شيئًا؟!! .

ولفظة (دمنة) التي رسمت ملامح الأطلال جاء بها سياق المطلع مختلفة هنا ؛ إذ تحمل في ذرات عَبَقِها أنفاسًا طيبة الذكرى أسدتها رياح الصبا ، (والسَّدى : المعروفُ) كما يقول صاحب اللسان[1]. فلم تكن دمنة أحقاد وكلوم ؛ بل هي : ما تَلبَّد من السِّرجين والبَعْر في مَبَاءات النَّعَم[2]. لكنها سرعان ماتلاشت وذهب عبقها حينما استيقن الواقع بارتحال تلك الميلاء من جنوب عنيزة ، فلم يعد في

(١) اللسان : (سدا) .
(٢) المقاييس : (دمن) .

النفس بغية تعلُّق أوغاية ترمي إليها الآمال ، وهو ما أثار الشجن ، وهيَّج النفس ، حتى استحالت دعوةً للبكاء ، والتباكي فتولَّد عن كل ذلك استفهام مُحَيِّرٌ ، مصدره هذه الميلاء التي ما كان يضيرها شيء لو أنها بَذَلَت من الوُدِّ ، أقل ما يمكن أن تبذله ؛ ولو كان في خفاء!! .

وهذا يدل على إمكان بذْل الود منها ، وهو سبب كل هذه الحيرة الصادمة!! . حتى وصل إلى النواة التي تشكلَّت منها الغاية في هذه الحيرة ؛ وذلك في المفارقة العجيبة حينما جعلته في موقف يجمع بين نقيضين ؛ هما : التعذيب ، حين (أَرَتنا حِياضَ المَوتِ) ولذة الوصل ، حين (قَلَّبَت لَنا مُقلَةً كَحلاءَ ظَلَّت تُديرُها) . ولايُدْرى على أيهما أقامت ؟!! .

وأظن أن هذا البيت هو الجذوة التي اتَّقدت منها معاني القصيدة وألهبت معالمها ، فرسمت ملامح سيرها بين طرفين مثَّلا موقف الشاعر والحالة التي كان يعيشها وهو واقع بين الألم والأمل .

فالألم ماثل في مظاهر العفاء وافتقاد المحبوبة ودفء مشاعرها ، وبُعْد ، وافتراق أوصاف الحُسْن ، والملاحة ، والجمال .

والأمل يظهر في إحياء عزيمة النفس ، وتجديد دوافعها نحو أسمى مطالبها ، وأمانيها! .

وفي لفظة (ثمَّت) دلالة على تراخي الزمن ، وتطاول الوصل ، ثمَّ انقلابها وهجرها إياه! .

ومن اللافت في هذا المطلع أيضًا ، اختيار الشمَّاخ اسم الصاحبة (الميلاء) وتكراره ؛ ففيه نفحة من تلذُّذ تتناسب وتعلقه الشديد بها ؛ وهو من الأسماء النادرة على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وكأنه يُكِنُّ شيئًا من التعريض الذي يرمي إليه ، فقد مال معها القلب كل الميل ، وهي أيضًا مالت عن كل مؤمل

كان يرجى منها !! . فهو ملائم لمعنى التقلُّب والتغاير في معنى القصيدة ، وترددها بين الإثبات والنقض ! .

القسم الثاني :

كَـأَنَّ غَضيضًـا مِـن ظِبـاءِ تَبالَـةٍ ... يُسـاقُ بِـهِ يَـومَ الفِـراقِ بَعيرُهـا
لَهـا أُقحُـوانٌ قَيَّدَتـهُ بِإِثـمِدٍ ... يَـدٌ ذاتُ أَصـدافٍ يُمـارُ نَؤورُهـا
كَأَنَّ حَصـانًا فَضَّـها القَـينُ غُـدوَةً ... لَدى حَيثُ يُلقى بِالفِنـاءِ حَصـيرُها
كَـأَنَّ عُيـونَ النـاظِرينَ يَشـوقُها ... بِها عَسَلٌ طابَت يَـدا مَـن يَشـورُها
تَناوَلنَ شَوبًا مِـن مُجاجـاتِ شُـمَّذٍ ... بِأَعجازِها قُـبٌّ لِطـافٌ خُصـورُها
كِنانِيَّةٌ شَـطَّت بِهـا غُربَـةُ النَـوى ... كَـدَلوِ الصَـناعِ رَدَّهـا مُسْـتَعِرَها
وَكانَت عَلى العِلاَّتِ لَـو أَنَّ مُـدنَفاً ... تَـداوى بِرَيّاهـا شَـفاهُ نُشـورُها
تَعوذُ بِحَبـلِ التَّغلِبـيِّ وَلَـو دَعَـت ... عَلِيَّ بـنَ مَسـعودٍ لَعَـزَّ نَصـيرُها

يأتي الشاعر بعد ذلك ليؤكد على مشهد الفراق الصعب ، وألم الرحيل المُمِضِّ ، الذي تولَّد من تقديم الظرف (يوم الفراق) على الفاعل (بعيرها) وتوسُّط الظرف بين الحدث والفاعل ، ممَّا شكَّل لديه اهتزازة محبطة ، وتهاوٍ في الآمال ؛ فجعل يستعيض عن مكان ذلك الإحباط بالتذكر ، واستدعاء أوصاف المحبوبة المعلَّقة والمجدِّدة ؛ لبناء تلك الآمال الآخذة في الانهيار ، ويهيئ لنفسه الدوافع لامتلاك القدرة على المواصلة في طلبها ، ولو كلَّفه ذلك من المشقة أقصاها .

فبدأ يُسْبِغُ عل تلك المحبوبة ألفاظًا شملت صفات الجمال التي اختُصَّت بها دون غيرها فـ (لَها أُقحُوانٌ قَيَّدَتهُ بِإِثمِدٍ) و (يَدٌ ذاتُ أَصدافٍ يُمارُ نَؤورُها) ، ثم يلاحظ تكرار أداة التشبيه (كأنَّ) مما يعينه ذلك على جعل صورة هذه المحبوبة حاضرة في ذهنه لا تغيب . وبدأ يلقي أوصافاً آسرة تعبِّر عن شدة تعلق النظر

بهذه المحبوبة والتشوق إليها وهو يرقبها ساعة الرحيل ؛ فجعلها في صورة من طعم العسل الحرِّ ، وأدمن مذاقه اللذيذ ، فتعلقت النفس به .

وهذه أوصاف نادرة في ذكر شدة تعلق النظر بالمحبوبة ، وهي من صنعة الشعر ، حيث داخَل بين وظائف الحواس وأعار بعضها مقام بعض ، حين جعل تعلق العين ، مقام تعلق الذوق في جودة الطعم ولذته .

فجملة هذا الأوصاف الضافية إضافة إلى ما أسبغه عليها من جلال القدْر ، وعلو النسب ، فهي (كِنانِيَّةٌ شَطَّت بِها غُربَةُ النَّوى) . وفي لفظتي (شطَّت) و(غربة) مايدل على مرارة اجتماع أمرين على النفس فيهما ثُقل البُعْد وتقاذفه بالإنسان ، ورحيل الاغتراب .

ثم إن نقاءها الفطري يجعلها في مقام الطهر الدائم ، فليست الشواغل محدثة في نفح عبقها الشافي شيئًا ، وهذا من أعلى صفات الطهر الحسي ، الموجبة لعلقة النفس . فجملة هذا الوصف المبهج الذي تنساق له النفس وتتشوف إليه ، هو مما يثير الهمة ، ويحفز قواها على عقد العزم ، والمضي في طلب الوصل المقطوع ، والسعي في لمِّ ما تشعَّث منه . وهذا يلائم انطماس معالم الديار ، وخلو أهلها عنها التي استهل بها مطلعه بقوله :

«عَفَت ذَروَةٌ مِــن أَهلِهــا فَجَفيرُهــا فَخَرجُ الــمَرَوراةِ الدَّوانِي فَدورُها»!!

حديث الراحلة :

فَإِن تَكُ قَد شَــطَّت وَشَــطَّ مَزارُهــا وَجَذَّمَ حَبلَ الوَصلِ مِنــها أَميرُهــا[1]

---

(١) ديوان الشماخ : ص١٦٥-١٦٩ .

وبهامشه : (جذم : قطع ، أميرها : زوجها أو ولي أمرها ، ذات مـرة : أي ناقـة قويـة ، أعناق : يجوز بفتح الألف بمعنى العنق ، ويجوز بكسرها بمعنى الإعناق أي السرعة ، ضريرها : البعير الضرير القوي على السفر ، النـواجي : الأينـق ، جماليـة : أي تشـبه الجمل ، العطف : الجانب ، الصيعرية : النشيطة ، البازل : التي طلـع نابهـا وذلـك ==

فَمـــا وَصْـــلُها إلاَّ عَلـــى ذاتِ مِـــرَّةٍ ... يُقَطِّـــعُ أَعنـــاقَ النَّـــواجي ضَـــريرُها

جُماليَّـــــةٌ في عِطفِهـــــا صَـــــيعَرِيَّةٌ ... إذا البازِلُ الوَجنـــاءُ أُردِفَ كورُهـــا

عَلَنـــداةُ أَســـفارٍ إذا نالَهـــا الـــوَنى ... وَماجَت بِهـــا أَنســـاعُها وَضُـــفورُها

يَـــرُدُّ أَنابيـــبُ الجِـــرانِ بُغامَهـــا ... كَما ارتَدَّ في قَوسِ السَّـــراءِ زَفيرُهـــا

لَجـــوجٌ إذا مـــا الآلُ آضَ كَأَنَّـــهُ ... أَعاصـــيرُ زَرّاعٍ بِنَخـــلٍ يُثيرُهـــا

كَأَنَّ قُتودي فَـــوقَ أَحقَـــبَ قـــارِبٍ ... أَطاعَ لَـــهُ مِـــن ذي نُجـــارٍ غَميرُهـــا

==في السنة الثامنة أو التاسعة ، الوجناء : التامة الخَلْق الغليظة لحم الوجنة الصلبة ، أردف كورها : تعبت فحمل رحلها على غيرها ، يصف هذه الناقة بأنها في الوقت الذي تتعب فيه كرام الإبل تكون هي نشيطة قوية ، علنداة : ناقة قوية نشيطة اعتادت على الأسفار وهي قوية عليها ، ماجت أنساعها : اضطربت ، يريد أنها ناقة شديدة قوية على السفر على الرغم مما يلحقها من التعب والضمور ، والنسع : سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال ، الضفور : جمع ضفر وهو ماشد به البعير من الشعر المضفور ، يرد : يرجع ، أنابيب : جمع أنبوب والمراد بها مخارج النفس من الرئة ، الجران : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحرة ، بغامها : صوتها ، لجوج : أي متمادية في النشاط مع شدة الحر ، أعاصير : جمع أعصار . القتود : خشب الرحل وأدواته ، والقارب : الذي يطلب الماء ليلاً ، الغمير : النبت ينبت في أصل النبت حتى يغمره الأول ، ضغن الناقة : حنينها إلى وطنها ، السربخ : الفلاة الواسعة البعيد الأرجاء ، فور القدر : غليانها ، تبوخ : تسكن وتفتر ، الميث : جمع ميثاء وهي الأرض السهلة ، النير بالكسر : جبل بأعلى نجد ، استقلت : ارتفعت ، العبور : هي الشعرى ، الأسمال : ماء قليل يبقى في أسفل الإناء وغيره ، الثمائل جمع ثميلة وهو ما يكون فيه الشراب في جوف الحمار ، صورها : جمع صوراء : وهي المائلة ، الأشراف : مرتفع من الأرض ، يستثيرها : يحركها لورود الماء ، فأزمع : عقد عزمه على الورود ، عين الأراكة : ناحية الأراكة ، الغارة : شجر الغار لفّاء : ملتفة الأغصان ، قب : جمع قباء وهي الضامرة ، المقالي : جمع مقلى وهو العود الكبير يضرب به الصبيان ، يشلها : يسوقها سوقا شديدا ، والمصلّى : السابق الثاني من الخيل ، يُزر : يُطرد ، جاش هم النفس : لم يقدر على حبسه) .

وَقَد سُلَّ عَنها الضِغنُ في كُلِّ سَربَخٍ ... لَهُ فَورُ قِدرٍ ما تَبوخُ سَعيرُها

تَرَبَّعَ مَيثَ النيرِ حَتّى تَطالَعَت ... نُجومُ الثُرَيّا وَاستَقَلَّت عَبورُها

فَلَمّا فَنى الأَسمالُ غاضَت وَقَلَّصَت ... ثَمائِلُها وَتابَعَ الشَّمسَ صورُها

فَظَلَّ عَلى الأَشرافِ يَقسِمُ أَمرَهُ ... أَيَنظُرُ جُنحَ اللَّيلِ أَم يَستَثيرُها

فَأَزمَعَ مِن عَينِ الأَراكَةِ مَوردِاً ... لَهُ غارَةٌ لَفّاءُ صافٍ غَديرُها

فَصاحَ بِقُبٍّ كَالمَقالي يَشُلُّها ... كَما شَلَّ أَجمالَ المُصَلّي أَجيرُها

يُزَرُّ القَطا مِنها فَتَضرِبُ نَحرَهُ ... وَمُجتَمِعَ الخَيشومِ مِنهُ نُسورُها

عَلى مِثلِها أَقضي الهُمومَ إِذا اِعتَرَت ... إِذا جاشَ هَمُّ النَفسِ مِنها ضَميرُها

وقبل أن يشرع في تفاصيل أوصاف الناقة العتيدة ، ترى الشمَّاخ يؤكد لنا من خلال جملة الألفاظ (شطَّت) و (شطَّ مزارها) (جذَّم حبل الوصل) على تقاذف البعد ، وألم الفراق المرِّ ! .

فهذه الناقة ذات مِرَّة ، تتفوق على قريناتها في السرعة ، فهي تشبه الجمل في قوة بنيتها ، وقد اعتادت على السفر ، فما عادت تعرف الكلل ولا الجَهْد إذا انطلقت نحو غايتها ، على الرغم مما يلحقها من المصاعب ، فهي غليظة طويلة شديدة .

فإدراك الوصل ، ومواجهة القطيعة « تتطلب رحلة يحاول الشاعر أن يعيد من خلالها توازنه النفسي ، وأن يحفظ ذاته من تلك الصدمات التي تعرض لها . وحماية الذات لا تكون بالنكوص والتراجع ؛ وإنما تكون بمحاولات التسامي فوق هذه النكبات »[1]. من أجل ذلك تراه يتخير في رحلته ناقة ؛ تتميز بكل هذه الصفات القوية ، حتى ترى لزفير صدرها بُغام يتردد ، يشبه صوت القوس إذا أنبض به الرامي .

(١) الشعر الجاهلي مقاربات نصية ، دكتور موسى ربابعة ، ص٣١ « بتصرف »، دار الكندي ، الأردن .

وهذا يحمل دلالة بالغة على قوتها ؛ فهي ليست ناقة كأي ناقة ، وإنما هي متمادية في قوتها ونشاطها ، وهذا جعله لا يكتفي بذلك الوصف ، لينتقل بل يشبهها بحمار الوحش الضامر الفتي ، الذي ظل في مكان من الأرض مرتفع ، تلفُّه الحيرة من أمره : أيمضي بالأُتُن نحو الورود ، أم ينتظر حتى يسدل الظلام ستوره؟! .

فهذه الحيرة لازالت تخيم على مواقف الشاعر ، وتلقي بظلالها على مسرح أحداثه ومشاهد فصوله ، مما يجعلها عنصرًا حاضرًا في جو القصيدة ، ويدخله في سياق التحدي القائم والتساؤل المستمر ، إلا أنه في نهاية المطاف حسم أمره وعقد العزم على المضي والعبور ، حين رأى مِن (عَينِ الأَراكَةِ مَوردًا) يشجعه على حسم القرار ، ويغريه في بالاندفاع إليه . فهذا المورد (لَهُ غارَةٌ لَفّاءُ صافٍ غَديرُها) فلا مجال للتردد في الأمر ؛ مما جعله يصيح بأتنه ناهرًا ليسوقها سوقًا شديدًا في صورة تشبه صورة الجِمال السابقةِ في العدو ، ومن خلفها الراعي يلوح بعصاه! .

ثم يختم حديثه في آخر بيت بإماطة شيء من لثام الغرض ، ومسفرًا عن حاله ، ومزاجه ، وأنه لا يقضي تلك الحالة ويبدد يأسها سوى أمثال هذه الناقة . وفي تقديم الجار والمجرور (على مثلها) مايفيد الاختصاص والتفرد ، وهو ما ألمح إليه ، من خلال سياقات أحداثه عند افتراق صاحبته الميلاء وذهابها عنه ، وذلك ما نهض بعزيمته فابتنى أوصاف راحلته ، وحمار وحشه على ما يعيد قوة النفس ، ويجدد ألقها ، ويبدد أحزانها إذا ماجاشت همومها .

القصيدة السادسة :

مطلعها [1]:

صَدَعَ الظَّعائِنُ قَلبَـهُ الـمُشتاقـا بِحَزيـزِ رامَـةَ إِذ أَرَدنَ فِراقـا

بدأ الشماخ مطلع هذه القصيدة وجعلها فصولاً مقسمة واضحة المعالم ، فاستهلها بالتدِّله والوله والفراق ، ثم وصف الظعائن ، والصاحبة ، ثم ذكر الطلل ، والرحلة والراحلة ، ثم الانتقال من حال الراحلة (الناقة) بعد أن شبهها بالظبية إلى ذكر حال حمار الوحش . وليس فيها غرض غير هذا ، وكأن القصيدة قائمة على الصبوة فقط ، ولاشيء غيرها !! .

القسم الأول من المطلع : الظعائن والصاحبة : [2]

صَدَعَ الظَعائِنُ قَلبَـهُ الـمُشتاقـا بِحَزيـزِ رامَـةَ إِذ أَرَدنَ فِراقـا

مَنَّينَـهُ فَكَـذَبنَ إِذ مَنَّينَـهُ تلـكَ العُهـودَ وَخُنَّـهُ الميثاقـا

وَلَقَد جَعَلنَ لَهُ الـمُحَصَّـبَ مَوعِـداً فَلَقَـد وَفَـينَ وَعاقَـهُ مـا عاقـا

يا أَسمُ قَـد خَبَـلَ الفُـؤادَ مُـرَوِّحٌ مِـن سِـرِّ حُبِّـكِ مُعلِـقٌ إِعلاقـا

فَسَـلَبتِهِ مَعقولَـهُ أَم لَـم تَـرَي قَلباً سَـلا بَعـدَ الـهَوى فَأَفاقـا

---

(١) ديوان الشماخ ، (ص٢٦١-٢٦٢) .

(٢) السابق : (ص٢٦١-٢٦٢) وبشرحه :

(صدع : شق ، حزيز رامة : الحزيز من الأرض موضع كثرت حجارته وغلظت ، المحصب : هو الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح بين منى ومكة ، أو موضع رمى الجمار بمنى ، مروح : أي مهلك ، وربما تكون تصحيف مروج : أي مختلط كما يرى ذلك المحقق ، وهي الأقرب لذمام المعنى ، خبل الفؤاد : أي أفسده ، من سر حبك : خالص حبك ، معلق : ناشب بالقلب ، التجلد : هو تكلف الجلد وهو الصبر ، وتعرضت : وتصدت ، عذب المذاقة باردا براقاً : جميعها أوصاف لمحذوف تقدير ثغراً ، في واضح ـ أي في وجه واضح كالبدر ، راع الفؤاد وراقا : أي أعجبه).

عَزَمَ التَجَلُّدَ عَــن حَبيــبٍ إِذ سَــلا عَنــهُ فَأَصــبَحَ مــا يَتــوقُ مَتاقــا
وَتَعَرَّضَــت فَأَرَتــكَ يَــومَ رَحيلِهــا عَــذبَ الــمَذاقَــةِ بــارِداً بَرّاقــا
في واضِــحٍ كَالبَــدرِ يَــومَ كَمالِــهِ فَلَمِثلُهــا راعَ الفُــؤادَ وَراقــا

مطلع هذه القصيدة بدئ بطريقة لافتة ، حيث استهلها بالفعل (صدع) ثم أسند فعل هذا الصدع إلى الظعائن ، وهــن يرحلن من حزيز رامة بقلبه المشتاق . فالقصيدة بنيت على صدع هذا القلب المشتاق ؛ هذا صافي المعنى الذي حمله .

وقوله : (صدع الظعائن قلبه المشتاقا) أجدها أشيعت في أركان القصيدة وسرت في مفاصلها ، فكانت كالجذر أو النواة التي تسللت أفكارها وامتدت في سائر أبياتها .

فتجد هذا المعنى قائمًا في البيت الثاني في قوله : (منينه فكذبن) وقوله : (وخنَّه الميثاقا) هي امتداد لصدع القلب ، وفيها إثارة لمعاني اللوعة وانطفاء الأمل . والبيت الثالث ـ أيضًا ـ يحكي مشهدًا من مشاهد الصدع حينما (جعلن له المحصب موعدًا) كان هذا الموعد مؤكدًا بـ (ولقد) قبل أن يزداد توكيده بـ(فلقد وفين) ، الشيء الذي فطر فؤاد الشاعر أن هذه المرة كان تأكيد الحضور والوفاء من قبل المحبوبة التي منَّته قبل ذلك فكذبت وخانت الميثاق ، فعندما وفَّت هذه المرة حالت الظروف القاهرة دون ذلك ، وعاقته عن الموعد المرتقب!! . وهذا أشد ما يُصدع به قلوب أهل الهوى والتصابي !! .

والشاعر بنى مدخل كلامه على خطاب الغائب (قلبه ـ منينه ـ جعلن له ـ فسلبته ـ معقوله) ، ولم يبنه على أسلوب المتكلم أو المخاطَب ، سوى عندما باح بكلمة الحب في قوله (من سرِّ حبك) . وفي هذا الأسلوب خصوصية توحي بأن هذا المقطع من الكلام مهم ، وفيه إشارة تنبيه وإيقاظ للمخاطب حتى يلتفت إلى هذا المعنى ؛ لأنه معنى جوهري وأصيل في القصيدة .

وكأن في ذلك ـ أيضًا ـ حيلة يحتالها الشماخ على نفسه ، بتنزيهها عمَّا لايطيقه ولايسعه كتمانه ، فباح به عن طريق إضماره للغائب !! .

ولا يفوت هنا التلويح بما أومأته لفظة (بحزيز) وما يثيره صوت أزيزها من إيحاء للنفس بالحزازة التي أصابته جراء هذا الفراق الصعب ، وهو ما يعمق الإحساس لدى المتلقي بالجو الذي أحاط القصيدة من شعور اللوعة والوله والتصابي .

والقصيدة فيها نفح غناء ، وطربة ، تنم عن صبوة ملتاع . تراها بادية في اختيار بحرها الكامل ، وصوت رويها القاف الممدودة ، كما تراها في ترخيم اسم الصاحبة (يا أسم) ففيه نفح لطَافة وترفُّق . وتراها أيضًا في مثل قوله : (صدع الظعائن قلبه) وقوله (خَبَلَ الفُؤادَ مُرَوِّحٌ) و (فَسَلَبتِهِ مَعقولَهُ) وفي جملة أسلوب الاستفهام الاستنكاري : (أَم لَم تَرَي قَلباً سَلا بَعدَ الهَوى فَأَفاقا) وفي جملة : (فَلَمِثلُها راعَ الفُؤادَ وَراقا) .

فكل هذه الجمل إذا استثنيت منها جملة الاستفهام أجدها قد وُسِمت بميسم واحد في نسج بنائها ، واستُخرج معناها من منجم واحد ، مترتبة ترتيبًا منطقيًّا ، فبدأت بصدع القلب ، ثم خبل الفؤاد ، ثم سلب العقل ، فكانت تمثل مشهدًا متصاعدًا من مشاهد التدله والوله والهيام ، وكانت محصلة ذلك كله ، جملة : (فَلَمِثلُها راعَ الفُؤادَ وَراقا) فكأنها كانت تتويجا لتلك الحالة ، وبها ختم الشاعر هذا القسم لينتقل إلى القسم الثاني .

القسم الثاني من المطلع جاء مقسمًا بين أمرين :

أولاً : الوقوف على رسوم الطلل بعد رحيل الأحبة ، واستنطاق دمنه الخرس .

ثانيًا : ذكر أحوال ناقته التي ارتحل عليها ، وتشبيهها بحال الظبية الخنساء ، وذكر تفاصيلها ، ثم تشبيهها بحال أخرى حملته حكاية حمار الوحش مع أتنه ، حيث يقول : [1]

---

(١)ديوان الشماخ : ص٢٦٢-٢٦٣ وبشرحه :

(اخلولق الرسم : استوى بالأرض ، حل بها الربيع نطاقاً : سكب فيها السحاب كل مافيه من ماء ، المغاني : المنزل الذي غنى به أهله ثم ظعنوا عنه ، مخلق : أي بال ، عجت القلوص : أي عطفت ناقتي الشابة ، الآي : جمع آية وهي العلامة ، الهلواع : التي تضجر فتسرع في السير ، الرواح : السير ، خنساء : الخنس : قصر في الأنف وتأخر مع ارتفاعه قليلاً عن الوجه ، مخراقاً : أي جزع فلصق بالأرض ولم يقدر على النهوض ، سفعاء : السفع سواد مشرب بحمرة ، وقفها السواد : أي في قوائمها خطوط سود ، زمعا : جمع زمعة وهي الشعرة المدلاة في مؤخرة رِجْل الظبي ، شوى الدابة : قوائمها ، دقاقا : لاغلظ لها ، الحقف : ما اعوج من الأرض واستطال وأشرف ، النكباء : كل ريح من الرياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين ، هي هنا التي بين الشمال والدبور ، تبجس : تشق وتفجر ، الوابل : المطر الشديد ، غيداقا : كثير الماء ، السارية : السحابة تمطر ليلاً ، أطاع : أنقاد ، الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه ، وقيل : الذي أريق ماؤه مع الريح ، تمري مزنها : تستدر ماءها ، أوداقا : المطر الشديد ، الروق : القرن ، متكنسا أفنان أرطأة : متخذاً من أغصان الشجرة كناساً له يستتر فيه ، يثرن : يهجن ، الدقاق : التراب اللين الذي كسحته الرياح من الأرض ، عان : أسير ، في عازب : في كلأ بعيد المطلب ، أنف : لم يرعه أحد من قبل ، تباهي : تفاخر ، أسنق وحشه : أي شبع حتى بشم ، التوجس هنا : التسمع لصوت خفي ، الركز : الصوت تسمعه من بعيد ، المكلب : صاحب الكلاب الذي يدرب كلابه ، سمل الثياب : بالي الثياب ، ضوار ضمر : أي كلاب عودها صاحبها على الصيد وأغراها به ، محبوة من قده أطواقا : أي جعل لها صاحبها أطواقا من جلد ، قبا : من القب : أي دقة في الخصر ، يجلجل : الجلجلة حركة بصوت ، الحضر : ضرب من العدْو ، يوفي : أي يشرف ، النجاء : ما ارتفع من الأرض ، ينفض : يحرك ، من ساعة : من بعد ، السحل : الثوب الأبيض ، إلهاقا : البياض الشديد ، الأحقب : الحمار الوحشي الذي في بطنه بياض ، قارب : طالب للماء ليلاً ، الطراد : مطاردته للحمر ، الحشى : مادون الحجاب مما في البطن ، خفاقا : كثير الاضطراب ، محص الشوى : قليل اللحم ،==

وَعَرَفتُ رَسماً دارِساً مُخلَولِقاً ... فَوَقَفتُ وَاستَنطَقتُهُ استِنطاقا

حَتّى إِذا طالَ الوُقوفُ بِدِمنَةٍ ... خَرساءَ حَلَّ بِها الرَبيعُ نِطاقا

قَفرٌ مَغانيها تَلوحُ رُسومُها ... بَعدَ الأَحِبَّةِ مُخلِقٌ إِخلاقا

عُجتُ القَلوصَ بِها أُسائِلُ آيَها ... وَالعَينُ تُذرى عَبرَةً تَغساقا

فَبَعَثتُ هِلواعَ الرَواحِ كَأَنَّها ... خَنساءُ تَتبَعُ نائِياً مِخراقا

سَفعاءُ وَقَّفَها السَّوادُ تَرى لَها ... زَمَعاً وَصَلنَ شَوىً لَهُنَّ دِقاقا

باتا إِلى حِقفٍ تَهُبُّ عَلَيهِما ... نَكباءُ تَبجِسُ وابِلاً غَيداقا

مِن صَوبِ سارِيَةٍ أَطاعَ جَهامُها ... نَكباءَ تَمري مُزنَها أَوداقا

فَثَنى يَدَيهِ لِرَوقِهِ مُتَكَنِّساً ... أَفنانَ أَرطاةٍ يُثِرنَ دُقاقا

وَكَأَنَّهُ عانٍ يُشاوِرُ نَفسَهُ ... غابَت أَقارِبُهُ وَشُدَّ وِثاقا

في عازِبٍ أُنُفٍ تَباهى نَبتُهُ ... زَهراً وَأَسنَقَ وَحشُهُ إِسناقا

فَتَوَجَّسا في الصُبحِ رِكزَ مُكَلِّبٍ ... أَو جاوَزاهُ فَأَشفَقا إِشفاقا

سَمِلِ الثِيابِ لَهُ ضَوارٍ ضُمَّرٌ ... مَحبُوَّةٌ مِن قِدِّهِ أَطواقا

فَغَدا بِها قُبّاً وَفي أَشداقِها ... سَعَةٌ يُجَلجِلُ حُضرُها الأَشداقا

== شنج النسا : متقبض ، خاظي المطي : مكتنز لحم الظهر ، صحل : في صوته بحَّة ، عانة : قطيع من حمر الوحش ، جُدَد : جمع جدة وهي الخطة السوداء في متن الحمار ، حان : قرب ، ينفي الجحاش : ينحي ولد الحمار جانبا ، يشذ : يفرد ، القرم : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للفحلة ، ينهزها : يدفعها بشدة ، حقاقا : هو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة من أولاد الإبل ، جأب : الغليظ من حمر الوحش ، حلائل : المراد أتنه ، سقت له : ضمت أرحامهن على مائه ، صددن : أعرضن ، وحمن : حملن واستعصت ، استمرَّ : استحكم خلقه واشتد وقوي ، يرمحنه : يضربنه بأرجلهن ، اللمام : اللقاء اليسير ، أوابيا : ممتنعات ، شمسا : من الشموس وهو النفور من الدواب الذي لايستقر لشغبه وحدته ، أحنقته : أغضبته .

يَرجـــو وَيَأمُـــلُ أَن تَصـــيدَ ضِـــراؤُهُ يـــوفي النجـــاءَ يُبـــادِرُ الإِشـــراقا
وَغَـــدا يُـــنَفِّضُ مَتنَـــهُ مِـــن ســـاعَةٍ كَالسَّـــحلِ أَغـــرَبَ لَونُـــهُ إِلـــهاقا

أول مايلفتني في ذكر أحوال هذه الرحلة حال الشاعر وهو يعوج ناقته ويتأهب بها للرحيل ، و (العَينُ تُذرى عَبرَةً تَغساقا) ، فهو يُعدُّ ويجهز ، وروح الصدع الذي أصاب قلبه وخبل فؤاده حاضر في أركان نفسه برحيل الظعائن ، ووقوفه واستنطاقه رسوم تلك الديار وآيها !! .

والفاء في قوله : (فبعثت هلواع الرواح) تفيد معنى أن بعث هذه الناقة جاء مترتبا عقيب الوقوف على رسوم تلك الديار ، وأنها استفزت مشاعره . وفي وصف (هلواع الرواح) للناقة شيء من البوح بالحالة التي اعترت الشماخ وأيقظت عنده جو الجزع ؛ فكأنه سكب على نفسه شيئًا من صفة الهلع التي تعدُّ من محصلات صدع القلب وخبل الفؤاد وذُكر عن الفراء أن الهلواع : هي الناقة التي تضجر فتسرع في السير [(١)].

ينتقل بنا بعد ذلك بمشهد هذه الناقة إلى عالم الظباء لاستكمال مشهده بظبية خنساء اختارها بدقة وبعناية كقالب فني مؤثر يصب فيه أحداث تلك الرحلة ، ووصف تلك الحالة ومشاعرها الفياضة الحانية ؛ وينقلها إلينا نقلاً طيعًا سلسًا.

فهذه الظبية تركت ولدها الصغير بمكان بعيد ، فهي تسرع وتجدُّ في الوصول إليه ، وقد أصابه الجزع فلصق بالأرض فلم يستطع النهوض!! . هذه الظبية سفعاء وقَّفها السواد فهي مشربة بحمرة ، وسُمْرة ، وفي قوائمها خطوط ، ولها شعرة مدلاة في مؤخرة رجلها الدقيقة . باتت هذه الظبية وولدها بجانب كثيب من الرمل متعرج ، ونكباء الريح تهب عليهما من الشمال والدبور ، وتسوق معها السحاب الممطر الشديد وابلاً غيداقا ، فقام ولدها ثانيًا يديه على

(١) شرح القصائد السبع الطوال ، لأبي بكر بن القاسم ابن الأنباري ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ص٥٢٤ ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٣٦٣م .

قرنه محتبيًا يتكنس أفنان أرطأة يستتر تحتها من وابل المطر ، ودقاق التراب يتطاير عليه من الريح ، يشبه في حاله هذا حال أسير قد شُدَّ وثاقه ، وقد انتأى به المكان عن أهله ، فهو منكمش يفكر في حاله ! وبينما هما كذلك إذا بصوت آتٍ من بعيد يتسرب إليهما لصياد يناجي كلابه ، فأشفقا حذرًا ، وسرى في نفوسهما الخوف والهلع ، فهيئة هذا الصائد وكلابه معه تثير حالة من الرهبة والفزع ، فهو رثُّ بالي الثياب ، يستحث السعي ويبتدر ساعات البكور طمعا في الصيد ، ومعه كلابه الضارية قد عودت على الصيد ، ولها أدم من جلد قد طوقت به أعناقها ، وهي ضمَّر دقيقة الخصر ، واسعة الأشداق .

يلاحظ على مجريات رحلة هذه الناقة التي بعثها الشماخ (وَالعَينُ تُذرى عَبرَةً تَغساقا) ، أن حاله هذه كانت مدخلاً لعرض أحداثها ، من خلال الانتقال إلى سرد أحوال الظبية وولدها ، وهي قصة تلف أحداثها أجواء التوجس والرهبة والفزع ، ويلخص جوها النفسي وهاجسها الغالب بيت واحد :

وَكَأَنَّهُ عانٍ يُشاوِرُ نَفسَهُ غابَت أَقارِبُهُ وَشُدَّ وَثاقا

هذا البعد النفسي الذي صوره البيت أجده حاضراً بشكل عام في المعاني التي اشتملت عليها أبيات المطلع ، في قوله : (أَرَدنَ فِراقا) و (مَنَّينَهُ فَكَذَبنَ) (وَخُنَّهُ الميثاقا) . فهي تمثل أحوال الفراق والبين ، والعجز عن المؤاتاة ، والبعد عن التلاقي . وينكشف ذلك الحضور في البيت الثالث منها : (وَلَقَد جَعَلنَ لَهُ المُحَصَّبَ مَوعِداً فَلَقَد وَفَينَ وَعاقَهُ ما عاقا) . أجد هذه المعاني تتجاذبها أطراف الفكرة نفسها ، فهنا (وفين وعاقة ما عاقا) وهناك (غابت أقاربه وشدَّ وثاقاً) فكلاهما يمثلان معاني الإعاقة والعجز عن حصول التلاقي . هذا هو الهاجس الذي سكن أركان نفس الشاعر حينما صدع قلبَه رحيلُ الظعائن والمحبوبة ، فسرت أنفاس هذا المعنى في ملامح أحداث رحلته مع أحوال الظبية وولدها!! .

ذكر أحوال حمار الوحش :

أَفَتِلكَ أَم هَـذا أَم أحقَـبَ قـارِبٌ أَبقـى الطِّـرادُ لَـهُ حَشـاً خَفّاقـا
مَحصُ الشَّوى شَنِجُ النَّسى خاظي المَطى صَـحِلٌ يُرَجِّـعُ خَلفَهـا التَّنـهاقا
في عانَـةٍ حُقـبٍ عَلَـت أَصـلابَها جُـدَدٌ وَحـانَ سَـوادُها الأَعناقـا
سـالَت عَلـى أَذنابِهـا وَتَخالُهـا بُـرداً عَلـى أَكتافِهـا أَخلاقـا
يَنفي الـجِحـاشَ كَما يُشِذُّ بِكـارَهُ قِـرمٌ يُنَهِّزُهـا يَعـضُّ حِقاقـا
جَأبٌ خَـلا بِحَلائِـلٍ وَسَـقَت لَـهُ فَحَمَلـنَ لَـم يُغـرَم لَهُـنَّ صَـداقا
فَصَدَدنَ عَنـهُ إِذ وَحِمـنَ عَـواذِلاً حَتّـى اِسـتَمَرَّ وَأَنكَـرَ الأَخلاقـا
يَرمَحنَـهُ بَعـدَ اللِّمـامِ أَوابِيـاً شُمسـاً فَقَـد أَحنَقنَـهُ إِحناقـا

ينتقل الشاعر في هذا القسم إلى مرحلة أخرى من مراحل الوصف لأحداث رحلة ناقته الهلواع بعدما شابهت حال خنساء الظباء وولدها هناك ، تشابه هنا حال حمار وحش أحقب البطن أبيضه ، يطلب الماء ليلاً ، قد أجهده طراده للحمر ، فاضطرب حشا قلبه خفقانًا . هذا الحمار (مَحصُ الشَوى شَنِجُ النَّسى خاظي المَطى) جاءت جملة هذه الأوصاف عبر دفقة شعورية متوهجة ، قذفتها غنائية طروب ؛ فهذا الحمار حسن القوام ، قوي البنية . فهو قليل اللحم متقبضه ، مكتنز لحم الظهر ، في صوته صحل وبحة ، يردد به خلف قطيع من أتنه الوحشية التي تباين ألوان أحقابها . ومتونها وظهورها سوادًا وبياضًا ، وكأنها كسيت ثوبًا باليًا فيه خطوط متفرقة! . ظل هذا الحمار ينفي الجحاش ، وينحيها جانبًا ، وهو غليظ ، قد خلا جانبا بأتنه ، واستفرد بها قليلاً ، ثم استعصت عليه ولم تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، حتى استحكم وقوي عوده وصلبه ، فأصبحت ترمحه برجلها وتنفر منه وتتأبى وتتمنَّع عنه ، فحنق ، واستشاط غضبه منها .

فملخص هذه القصة تدور حول حمار وحشي مكتمل الخِلْقة ، والقوة (أَبقى الطِرادُ لَهُ حَشاً خَفّاقا) . ومأأشبه هذه القول بجملة صدر المطلع (صَدَعَ الظَعائِنُ قَلبَهُ المُشتاقا) فهنا طراد حمر أعقبت حشًا خفاقًا متلهفًا ، وهنا ظعائن ترحل أعقبت صدع قلب متشوق . هذا الحمار مولع بأتنه أشد التولع ، ويحاول جاهدا أن ينفرد بها ويتمكن منها ، فلا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ؛ فيحنق ، ويعلوه الغضب .

المتأمل في تفاصيل أحوال هذه القصة . ومجرياتها ، يلاحظ أنَّ هناك رابطًا عميقًا يلملم أشتات المعاني التي دارت في صدر مطلعها ، فهناك نوع من ترابط النسج بين مجريات الأحوال بينهما ، أراه في يمثل في صورة حال الشاعر الذي (صدع الظعائن قلبه المشتقاقا . . . إذ أردن فراقا . . . .) وأره يظهر أيضًا في البيت السابع والثامن :

وَتَعَرَّضَـــت فَأَرَتــكَ يَــومَ رَحيلِهــا عَـــذبَ المَذاقَـــةِ بـــارِداً بَرّاقـــا

في واضِـــحٍ كَالبَـــدرِ يَـــومَ كَمالِـــهِ فَلَمِثلُهـــا راعَ الفُـــؤادَ وَراقـــا

فأجد المعاني ، والأفكار التي حوتها أبيات المطلع ، وأحوال قصة حمار الوحش مع أتنه تتقارب تقاربًا كبيرًا في ما بينها ، فهي تدور حول التلهف للوصال ، وحصول التلاقي ، والعجز وعدم القدرة في تحقيق ذلك . فهي تمثل معاناة صبوة محب في ملاقاة حبيبة قد افترقت عنه بعد طول وصال ، فانصدع قلبه المشتاقا لذلك الفراق وهو لا يملك له ردًّا !! .

* * *